مفهوم السنن الربانية
دراسة في
ضوء القرآن الكريم

تأليف

د. رمضان خميس زكي
مدرس التفسير وعلوم القرآن
بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾

[آل عمران: ١٣٧]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمد الله رب العالمين، وأصلى وأسلم على المبعوث رحمة وهداية للعالمين محمد صلى الله عليه وسلم وغلى آله وأصحابه والتابعين.

اللهم إنا نبرأ من حولنا وطولنا وقواتنا، ونلوذ بحولك وطولك وقوتك؛ فلا تلكنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا قبضتها يا أرحم الراحمين.

اللهم إنا نسألك يا حنان يا منان يا بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام أن تجعل أقوالنا وأعمالنا فيك لك خالصة إنك على كل شيء قدير.

وبعد،،،

.١.

فإن موضوع السنن الربانية من الأهمية بمكان، ورغم خطورة إهماله وضرورة الحديث عنه إلا أنه لم يأخذ من تفكير المسلمين فى القديم أو الحديث إلا النذر اليسير، فإذا كانت آيات القرآن الكريم ستة آلاف ومائتين وستة وثلاثين آية وآيات الأحكام والمعاملات لا تزيد على خمسمائة آية فإن المسلمين حصروا أنفسهم - إلا من رحم الله - فى هذا الجزء اليسير الذى لا يتجاوز ١ / ١٢ من مجموع آيات القرآن الكريم

فدخلوا فى فروع الفقه ومسائله وفروع فروعه وتفصيلاته فى الوقت الذى يرون فيه أن القرآن الكريم لم يترك مسألة من مسائل عمارة الأرض وإثارة خيرها والانتفاع بما فيها إلا ولمسها وتحدث عنها.

إن القرآن الكريم غنى بالجوانب الحضارية التى تتكفل بأن تنشىء أمة وتحيى جيلاً وتقود الناس إلى طريق الله رب العالمين لكن الأزمة ليست فى غياب المنهج الذى يضبط ولكن فى العقل الذى يدرك والقلب الذى يعى والجارحة التى تعمل وتنفذ.

٢

إن الجيل الرائد من أصحاب الرسول ﷺ ساد الدنيا وفتح البلاد وقاد العباد بأمر الله تعالى لأنه استوعب القرآن الكريم استيعابا عمليا فكان يتعلم العلم والعمل معا من هنا استطاع أن يؤسس حضارة ويبنى فكرًا وينشىء جيلا بل أجيالاً لكن لما تراخت قبضة المسلمين عن مفاهيم دينهم أصبحوا لا يبرزون فى دنيا ولا يتعمقون فى دين.

وصدق فيهم قول القائل:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا

فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

٣

وقد دفعنى للكتابة فى هذا الميدان غير واحد من الأمر منها ما لمسته فى فكر علماء راسخين وأفذاذ عاملين حسبتهم كذلك والله حسيبهم،

فقد كانت أطروحتى فى التخصص حول الشيخ محمد الغزالى وجهوده فى التفسير وعلوم القرآن وكنت أرى بين حين وآخر حديثًا منثورًا عن قضية السنن وإهمال المسلمين لدراستها، فلفت نظرى هذا الكلام الذى لم أكن قد سمعته من قبل وغذى الفكرة فى رأسى أحد شيوخى الأجلاء الذين كنت أتلقى العلم على أيديهم فكان يدفعنا دفعا إلى القراءة والكتابة فى هذا الميدان الخصب، الذى يؤتى أكله ويثمر ثمره للإسلام والمسلمين وكنا وقتها نسمع هذا الكلام ولا نعى أرجاءه ولا ندرك مراميه كما يسمع عامى قراءة شيخ ماهر فلا يدرك من القراءة إلا جمال النغم وحلاوة الأداء حتى من الله تعالى علينا ويسر لنا سبيله.

•٤•

هذا وقد سميت هذه الدراسة مفهوم السنن الربانية دراسة فى ضوء القرآن الكريم، وأعنى بالسنن هنا النظام الإلهى الذى يحكم سلوك البشر فى انضباط واطراد، وكلمة الربانية أقصد بها المنسوبة إلى الرب سبحانه وتعالى وذلك لغرض فى نفسى أن نسبتها إلى الرب يلحظ فيها ملمح التربية فإن الله تعالى يرى عباده بهذه السنن الثابتة والنواميس الصارمة رغم أنه قد شاع على بعض الألسنة لفظ السنن الإلهية إلا أننى رأيت أن كلمة الربانية هنا أوفق لما يلمح فيها كما قلت من معنى التربية من جهة الله - عز وجل -.

وقد سبقنى فى هذا الميدان كتابات من أهمها وأبرزها كتاب السنن

الإلهية فى الأمم والأفراد والجماعات والشعوب للدكتور عبد الكريم زيدان ـ أكرمه الله ـ والكتاب على روعته وعظمته تناول عددا من السنن الربانية ولم يتعرض بتفصيل كاف للحديث عن السنن وطبيعتها وخصائصها وحجمها إلى غير ذلك.

كذلك وجدت كتابات متناثرة هنا وهناك للأستاذ الإمام حكيم الإسلام الشيخ محمد عبده ـ رحمه الله ـ.

كذلك وقعت وأنا فى المراحل الأخيرة من هذه الدراسة على كتاب (مدخل إلى دراسة السنن الإلهية فى القرآن الكريم) فانتفعت به أيضًا.

كما وجدت فى كتابات الأستاذ مالك بن بنى وتلميذه البار الأستاذ جودت سعيد غناء وأى غناء بطريق مباشر وغير مباشر.

هذا وقد قسمت بحثى بعد المقدمة إلى أربعة فصول وخاتمة أما المقدمة فهى ذى وأما الفصول فكانت على النحو التالى:

الفصل الأول فى الحديث عن مفهوم السنة الربانية فى اللغة والقرآن والحديث النبوى الشريف وقد جاء فى عدة مباحث:

المبحث الأول: السنن الربانية فى لسان العرب.

المبحث الثانى: السنن الربانية فى القرآن الكريم.

المبحث الثالث: السنن الربانية فى السنة النبوية المطهرة.

المبحث الرابع: أهمية دراسة السنن والآثار المترتبة على إهمالها.

والفصل الثانى: جاء فى خصائص السنن الربانية وقد جاء فى المباحث التالية:

المبحث الأول: خصائص السنن الربانية .

المبحث الثانى: حجية السنن الربانية .

المبحث الثالث: صيغ ورود السنن الربانية فى القرآن الكريم .

المبحث الرابع: موارد السنن الربانية .

المبحث الخامس: صور التعبير عن السنن الربانية فى القرآن الكريم .

والفصل الثالث: كان عن العلاقة بين السنن الكونية والسنن الربانية وقد جاء فى مبحثين:

المبحث الأول: خصائص السنن الكونية .

المبحث الثانى: التطابق بين السنن الكونية والسنن الربانية فى القرآن الكريم .

والفصل الرابع جاء فى منهجية التعامل مع السنن الربانية وقد شمل المباحث التالية:

المبحث الأول: تهيؤ الإنسان لإدراك السنن الربانية .

المبحث الثانى: العلم بالسنن الكونية طريق إلى معرفة السنن الربانية .

المبحث الثالث: السنن الربانية من الفهم إلى التسخير ومن الإدراك إلى التوظيف .

هذا وكلى أمل فى أن يمد الله فى عمرى حتى أرى هذا المجال

الخصب قد أترع بالأقلام الواعية والعقول الواعية التى تسخر الكون وتوظفه حتى يهتف الناس من جديدها قد عاد المسلمون.

اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى، اللهم اغفر لى هذلى وجدى وخطئى وعمدى وكل ذلك عندى.

اللهم تقبله منى إنك أنت السميع العليم.

كتبه أفقر الخلق إلى عفو مولاه

رمضان خميس الغريب

●●●

الفصل الأول

مفهوم السنن الربانية فى لسان العرب والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة

المبحث الأول

مفهوم السنن فى لسان العرب

يرى صاحب اللسان أن السنة تعنى السيرة والطريقة حسنة كانت أو سيئة مقبولة كانت أو مرذولة[1] ويرى ابن الأثير فى كتابه النهاية فى غريب الحديث والأثر أن السنة تعنى الطريقة والسيرة ففى حديث المجوس: سنوا بهم سنة أهل الكتاب أى خذوهم على طريقتهم وأجروهم فى قبول الجزية فيها مجراهم[2] والفيروز آبادى يتلمس فى بصائره الكلمة من نواحيها ويطرقها طرقًا يقترب مما نريد الوصول إليه فهو يذكر أن (الأصل فيها الطريقة والسيرة ومنه قوله ﷺ: **«من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة»**[3]. أى طرق طريقة حسنة.. وسنة النبى ﷺ: طريقته التى كان يتحراها وسنة الله قد يقال لطريق حكمته وطريق طاعته وقوله تعالى: **﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾**[4] تنبيه (إلى) أن فروع

---

(١) انظر لسان العرب: مادة سنة.

(٢) انظر النهاية فى غريب الحديث والأثر جـ٢ ص٤٠٩ بتصرف يسير.

(٣) البخارى، كتاب الجزية، وموطأ مالك كتاب الزكاة، باب جزية أهل الكتاب والمجوس.

(٤) سورة فاطر: ٤٣.

الشرائع وإن اختلفت صورها فالغرض المقصود منها لا يتخلف ولا يتبدل.. وسن الماء على وجهه: صبه صبًا سهلاً وسن الحديدة حددها وسنان ومسنون وسنين وسن سكينه بالمسن)[1].

والناظر فى كلام الفيروزى آبادى رحمه الله يجده يلمس معنى السنة من خلال اختيار النصوص وتتبع المادة ولعل إشارته إلى أن (فروع الشريعة وإن اختلفت صورها فالغرض المقصود فيها واحد لا يتغير ولا يتبدل) وبنعته لكلمة سن من سنن الماء على وجهه والسن بعض الرعى كل هذا فيه ضبط دقيق من معنى اللفظة والسن بمعني الرعى، فيه نوع من السير على نفس المرعي وبذات الطريقة جيئة وذهاباً وهو نفس السيرة والطريقة. ووحدة الغرض المقصود من الشرائع وإن اختلفت صورها نوع أيضًا من اتحاد الهدف من السنة التى تجرى على اللاحقين كما جرت على السابقين.

والزمخشرى فى أساسه قد استوعب لفظ السنة وتقلبهاتها فقال: سن سنة حسنة والزم سَنَن الطريق: قصده وسنن الفرس وهو عدوه إقبالاً وإدباراً فى نشاط وزعل وسن إبله أحسن رعيها وصقلها كما يسن السيف وسن الأمير رعيته أحسن سياستها، وفرس مسنونة بحسن القيام عليها.. وجاء بالحديث على سننه على وجهه.. واستنت الطرق وضحت كل مذهب ومنه قول القائل.

(١) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز جـ٣ ص٢٦٧، ٢٦٨، ط الثالثة ١٤١٦ هـ١٩٩٦م ت أ محمد على النجار ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بتصرف واختصار.

ولو شـهدت مقـامى بالحسـام على

حـد المسناة حيـث اسـتنت الطرق

واستن به الهوى حيث أراد ذهب به كل مذهب ومنه قول القائل:
دعانى إلى ما يشتهى فأجبته وأصبح بى بسنن حيث يريد[١].

والذى يتأمل نص الزمخشرى فى الأساس يجد أن المادة وتقلباتها تدل على بعض صفات السنن وخصائصها من الوضوح والثبات والشمول والعموم. والتعهد وحسن المتابعة والرعاية. والتكرار وهذا من الملامح العامة للسنة الإلهية كما سنعرف ذلك إن شاء الله عند الحديث عن خصائص السنن الإلهية.

وأما الراغب فى مفرداته فيقول: سنة الوجه طريقته وسنة النبى ﷺ طريقته التى كان ينحراها وسنة الله ـ تعالى ـ قد تقال لطريقة حكمته وطريقة طاعته... وقوله تعالى ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[٢] قيل متغير وقوله تعالى ﴿لم يَتَسَنَّهْ﴾[٣] معناه (لم يتغير)[٤] وكلام الراغب الأصفهانى رغم اشتراكه مع جزء ليس باليسير مع كلام الفيروز آبادى والزمخشرى إلا أنه ألمح إلى صفة من صفات السنن وهى الثبات وعدم التغير كما سيتضح ذلك بعد.

---

(١) انظر أساس البلاغة جـ١ ص٤٦٢، ٤٦٣ ـ مادة س ن ن باختصار وتصرف.

(٢) الحجر: ٢٨.

(٣) البقرة: ٢٥٩.

(٤) انظر المفردات فى غريب القرآن ص٣٥٦، ٣٥٧ مادة سن ن باختصار. ط الأنجلو بدون تاريخ.

وشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يدى (أن السنة هى العادة التى تتضمن أن يفعل فى الثانى مثل ما فعل بنظيره الأول ولهذا أمر الله ـ تعالى ـ بالاعتبار)[1] وكذلك يرى الإمام الرازى فى تفسيره أن السنة هى الطريقة المستقيمة والمثال المتبع[2].

وقد أبدع صاحب المنار عندما ربط المادة اللغوية لكلمة سنة بالمعنى الدلالى لها عندما قال (إنها الطريقة المعيدة والسيرة المتبعة أو المثال المتبع من قولهم سن الماء إذا والى صبه فشبهت العرب الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب فإنه لتوالى أجزائه على نهج واحد يكون كالشيء الواحد[3] وأجاد وأفاد عندما ربط بين كلمة سنة التى نتحدث عنها و(السنة) المدونة وهى فعل الرسول ﷺ وأقواله وتقريراته بقوله (إن أهل الحق من سلف الأمة إنما سموا بأهل السنة والجماعة؛ لأنهم ساروا فى الاهتداء بالإسلام على السنة وهى الطريقة العملية التى جرى عليها النبى ﷺ فى بيان القرآن كما أمره الله تعالى بقوله ﴿ وأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[4] وتلقاها عنه بالعمل جماعة من الصحابة.. والأقوال وحدها لا يتبين بها المراد بيانًا قطعيًا لا يحتمل التأويل، فالأفعال وإن كانت فى غاية الجلاء والوضوح ولذلك قال على المرتضى ـ كرم الله تعالى وجهه ـ لابن

---

(١) انظر مجموع الفتاوى: جـ٣/٢٦٧، ٢٦٨.

(٢) انظر مفاتيح الغيب: ٩/ ١١.

(٣) انظر تفسير المنار جـ٤ ص١١٥ بتصرف قليل.

(٤) سورة النحل: ٤٤.

عباس رضى الله تعالى عنها عندما أرسله لمجادلة الخوارج: احملهم على السنة فإن مراده بالسنة ما ذكرناه من معناها الموافق للغة لا المعنى الاصطلاحى للحديثين وسائر علماء الشرع الذى يشمل الأخبار القولية وغيرها)[1].

«والخلاصة أن السنة هى القانون الضابط المهيمن والفعل النافذ الحاكم الذى يجرى باطراد وثبات وعموم وشمول مرتبًا على سلوك البشر».

●●●

(١) انظر تفسير المنار: جـ٨ ص٢٢٤، ٢٢٥ بتصرف واختصار.

المبحث الثانى

مفهوم السنن الربانية فى القرآن الكريم

ورد لفظ سنة فى القرآن الكريم بما يقارب سبع عشرة مرة منها قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ** ﴾[1] وقد وردت هذه الآية الكريم فى سياق الحديث عن الكافرين وموقفهم من الإسلام وإنفاقهم أموالهم ليصدوا عن سبيل الله وأنهم سينفقونها وستكون عليهم حسرة ثم يغلبون فأتت هذه الآية الكريمة لتبين لهم أنهم إن انتهوا فإن الله بحمله وفضله ورحمته سيغفر لهم وإن يعودوا لما درجوا عليه ويصدوا عن الإسلام بأفعالهم السابقة فقد خلت (سنة) الله تعالى فى الأمم الماضية وسيجرى عليهم ما جرى على من سبقهم للذين كفروا يقول إمام المفسرين الطبرى عند تناوله لهذه الآية الكريمة: «قل يا محمد لمشركى قومك إن ينتهوا عماهم عليه مقيمون من كفرهم بالله ورسوله وقتالك وقتال المؤمنين فينيبوا إلى الإيمان يغفر الله لهم ما قد خلا ومضى من ذنوبهم قبل إيمانهم وإنابتهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله بإيمانهم وتوبتهم وإن يعودوا لقتالك بعد الوقعة التى أوقعنها بهم يوم بدر فقد مضت سنتى فى الأولين منهم ببدر ومن غيرهم من القرون الخالية إذ طغوا وكذبوا رسلى ولم يقبلوا نصحهم من إحلال

---

(١) سورة الأنفال: ٣٨.

عاجل النقم بهم فأحل بهؤلاء إن عادوا لحربك وقتالك مثل الذى أحللت بهم[1].

ويقول الإمام محمد عبده صاحب تفسير المنار رحمه الله: ﴿وَإِن يَعُودُوا﴾ أى إلى العداء والصد والقتال ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾ أى تجرى عليهم سنته المطردة فى أمثالهم من الأولين الذين عادوا وقاتلوهم.. وهى السنة التى عبر الله عنها بمثل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[2] وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾[3] فإضافة السنة إلى الأولين لملابستها لهم وجريانها عليهم[4] وفى ذلك نوع من لفت أنظار المعاندين إلى أن السنة الماضية والقانون الحاكم لخلق الله عزوجل أجرى على الناس جميعًا دون مجاملة ولا محاباة (فإن سنة الله فى الأولين لا تتخلف ولقد مضت سنة الله تعالى - أن يعذب المكذبين بعد التبليغ والبيان وأن يرزق أولياءه النصر والعز والتمكين وهذه السنة ماضية لا تتخلف وللذين كفروا أن يختاروا وهم على مفرق الطرق)[5].

---

(1) انظر جامع البيان عن تأويل آى القرآن هـ م السادس جـ9 دار الريان للتراث 1407هـ/1987م بتصرف يسير وانظر قريبًا من هذا المعنى فى تفسير الكشاف جـ2 ص256 مكتبة مصر للإمام الزمخشرى، ومحاسن التأويل جـ5 ص292 ط دار الكتب العلمية للإمام القاسمى.

(2) سورة المجادلة: 20، 21.

(3) سورة غافر: 51.

(4) انظر تفسير المنار جـ9 ص552.

(5) انظر فى ظلال القرآن جـ3 ص1508 ط الشروق ط الرابعة 1397هـ/ 1977م.

ومن الآيات الكريمة التى وردت فيها لفظ سنة قوله تعالى فى سورة الحجر ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ﴾(١) والآيات الكريمة تتحدث عن صورة من صور الصراع بين الحق والباطل ولون من جدل أهل الباطل مع الحق وحزبه فدلت الآيات الكريمة على أن هؤلاء المعاندين الرافضين لا يؤمنون ولن تشرب قلوبهم روح التصديق وقد كذبوا إذ إنهم رأوا الآيات واضحات والدلالات بينات ومع ذلك رفضوا الإيمان وعاندوه.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى فى سورة الإسراء ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً * سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾(٢).

والآية الكريمة وردت فى سياق الحديث عن الصراع ـ أيضًا بين الحق والباطل وموقف هؤلاء المعاندين من الدعوة والداعية والرسالة والرسول ورغبتهم فى أن يخرجوه من الأرض التى يدعو فيها إلى الله عزوجل، وموقف صاحب الدعوة والرسالة بقدرته المطلقة وعزة وحمته من هؤلاء فى أنهم لا يخلفون الرسول لو أخرجوه من الأرض ورد الفعل هذا ليس خاصًا بالرسول ﷺ وحده بل هو قانون مطرد وسنة ماضية لا تتحول ولا تتبدل.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: فى سورة الكهف: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي

---

(١) سورة الحجر: ١١ ـ ١٢.
(٢) الإسراء: ٧٦ ـ ٧٧.

هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً * وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا * وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً * وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾[١].

وكما هو واضح من سياق الآيات الكريمة أنها تتحدث عن جدل الإنسان المفرط الذى أصبح به موسومًا فهم ممتنعون عن الإيمان والارتكان إلى الله ـ عز وجل ـ إلا إذا أتتهم السنة الماضية فى ا لأمم التى سبقتهم أو يروا العذاب رأى عين ثم توضح الآيات الكريمة أن وظيفة الرسل هى البشارة والنذارة وأن جدل هؤلاء المجادلين ليس طلبًا للحق ولا بحثًا عن الرشد وإنما يجادلون ليدحضوا بجدالهم الحق بدليل أنهم لو كانوا طلاب حقيقة لانتفعوا من الآيات والإنذار الذى أتاهم ولم يتخذوا ذلك كله هزوا أو سخرية.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[٢].

---

(١) الكهف: ٥٤ ـ ٥٩.

(٢) الأحزاب: ٣٨.

والسنة فى هذه الآية الكريمة تعنى الحكم النافذ والقدر المحتوم والآية واردة في سياق الحديث عن زواج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش رضى الله عنها وأن أمر الله - سبحانه وتعالى - لرسوله بذلك ليس نقصاً له ولا حطًا من قدره يقول ابن كثير - رحمه الله - عندما تناول الآية الكريمة - أى هذا حكم الله تعالى فى الأنبياء قبله لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم فى ذلك حرج وهذا رد على من توهم من المنافقين ينقصا فى تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذى كان قد تبناه ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ أى وكان أمره الذى يقدره كائنًا لا محالة وواقعًا لا محيد عنه ولا معدل فما شاء كان وما لم يشاء لم يكن)[1] وقد ورد لفظ السنة كذلك فى نفس السورة الكريمة وهى تعالج سدور المنافقين والذين فى قلوبهم مرض والمرجفين فى المدينة وتهددهم بأن يغرى الله تعالى بهم رسوله فلا يجاورونه فى المدينة إلا قليلاً وذلك فى قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾[2].

والآيات الكريمة توضح أن أخذ الله تعالى لهم ومعاقبته إياهم إذا لم ينتهوا نافذ نفاذ القانون الثابت والقدر المقدور ويجري عليهم كما جرى على من قبلهم (فهذه سنته تعالى فى المنافقين إذا مردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه أن أهل الإيمان يسلطون

(١) انظر تفسير القرآن العظيم جـ٣ ص٤٩٢ ط عيسي الباب الحلبى وانظر فى هذا المعنى الظلال جـ٥ ص٢٨٧٠.

(٢) سورة الأحزاب: ٦٠ - ٦٢.

عليهم ويقهرونهم ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ أى وسنة الله فى ذلك لا تتبدل ولا تتغير[1] فهى سنة نافذة وقانون مطرد لا يتخلف ولا يتحول، وإذا كان ابن كثير[2] يعبر عن السنة فى هذه الآيات الكريمة بالعقوبة فإنى أرى أنه يقصد بها مآلها أى المنتهى والمصير الذى تصير إليه عاقبة هؤلاء فيصابوا بعقوبة الأمم التى كذبت من قبل ومآل الكلام واحد وليس معناها هنا العقوبة إلا من ناحية مآل هذه السنة إلى العقوبة « فالأمور لا تمضى فى الناس جزافًا والحياة لا تجرى فى الأرض عبثًا فهناك نواميس ثابتة تتحقق لا تتبدل ولا تتحول والقرآن يقرر هذه الحقيقة ويعلمها للناس كى لا ينظروا الأحداث فرادى ولا يعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصلية محصورين فى فترة قصيرة من الزمان وحيز محدود من المكان ويدفع تصورهم لارتباطات الحياة وسنن الوجود فيوجههم دائمًا إلى ثبات السنن واطراد النواميس ويوجه أنظارهم إلى مصداق هذا فيما وقع للأجيال قبلهم ودلالة ذلك الماضى على ثبات السنن واطراد النواميس وهذه الجولة الخامسة (التى يلفت فيها الله تعالى أنظار الناس إلى السير فى الأرض والنظر فى عاقبة الذين من قبلهم وقد كانوا أشد منهم قوة) نموذج من نماذج هذا التوجيه بعد تقدير الحقيقة الكلية من أن سنة الله لا تتبدل ولا تتحول ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[3].

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم جـ٣ ص٥١٩ بتصرف يسير.

(٢) انظر معنى السنة فى الآيات الكريمة عند ابن كثير فى جـ٣ ص٥٦٣ .

(٣) سورة فاطر: ٤٤.

والسير فى الأرض بعين مفتوحة وقلب يقظ والوقوف على مصارع الغايرين وآثار الذاهبين وإيقاظ القلوب من الغفلة التى تسدر فيها فلا تقف وإذا وقفت لا تحس وإذا أحست لا تعتبر وينشأ عن هذه الغفلة غفلة أخرى عن سنن الله الثابتة وقصور عن إدراك الأحداث وربطها بقوانينها الكلية وهى الميزة التى تميز بها الإنسان المدرك من الحيوان البهيم الذى يعيش حياته منفصلة اللحظات والحالات لا رابط لها ولا قاعدة تحكمها والجنس البشرى كله وحدة أمام وحدة السنن والنواميس)[1] ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[2].

وقد عنيت سورة (غافر) كذلك بذكر لفظ (سنة) وذلك فى قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾[3].

وهذا النجم الرائع من نجوم القرآن الكريم والطائفة المتماسكة التى تسعى إلى هدف واضح من بدايات الآية الآمرة بالسير فى الأرض إلى نهايات الآية العارضة لسنة الله ـ تعالى ـ فى كونه وخلقه تتحدث

---

(١) انظر فى ظلال القرآن جـ٥ ص٢٩٤٩ ـ ٢٩٥٠ بتصرف وترتيب.

(٢) سورة فاطر: ٤٤.

(٣) سورة غافر: ٧٨٢ ـ ٨٥.

جميعها عن قضية واحدة تمهد أوائلها لأواخرها وتصدق أواخرها أوائلها في تناغم واتساق فالآيات الكريمة تدعو في بداياتها هؤلاء المعرضين المعاندين - إلى السير والنظر في عاقبة الذين كانوا من قبلهم وقد كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض ومع ذلك لم يغن عنهم ما كانوا يكسبون ذلك أنهم ما أمنوا برسلهم الذين أتو لأخرجهم من الظلمات إلى النور بل فرحوا بما عندهم من العلم فأحاط بهم ما كانوا به يستهزؤون فعندما عاينوا وقوع العذاب بهم قالوا - أمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم تكن لتقبل توبتهم ولا لتقال عثرتهم لأنها سنة الله التي مضت في عيادة وحكمة في جميع من تاب بعد معاينة العذاب أنه لا تقبل توبته بل يحيق به مكره (ولا يحيق المكر السئ إلا بأهله) (وخسر هنالك الكافرون).

ووردت لفظة سنة كذلك في سورة الفتح السورة المدنية في صدد الحديث عن الصراع بين الحق والباطل وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾[1].

فهذا التبشير من الله تعالى لأهل بيعة الرضوان بالظفر والنصر المستمر لصدق إيمانهم وإخلاصهم في ثباتهم وإيثارهم مرضاة الله ورسوله على كل محبوب (ولو قاتلكم) أي بعد هذا الفتح والنصر المعجل لولوكم أعجازهم في الحرب فعل المهزم ولا يجدون من يواليهم

---

(١) سورة الفتح: ٢٢-٢٣.

على حربكم وينصرهم عليكم وكذلك مضت سنة الله فى كفار الأمم السالفة مع مؤمنيها ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تغييراً)[1].

وكذلك وردت اللفظة فى سورة آل عمران فى قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[2].

والآيات الكريمة كما هو واضح من سياقها تدور حول الحديث عن التداول الحضارى والسنة الماضية فى إصابة كل من الفريقين حتى ينقى الله تعالى صف المؤمنين ويدحر فلول الكافرين، وفيها دعوة للمؤمنين إلى النظر فى مآل المكذبين والتدبر فى عاقبتهم وفى هذا بيان لأمر الله الماضى فى كونه وخلقه وهدى لمن استجاب له وموعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ثم عرض الآيات الكريمة لتنهى المؤمنين عن الهوان والحزن فهم أعلى بإيمانهم وأرقى بيقينهم وأثبت بصلتهم بربهم - جل وعلا - وتبين لهم أن مس القرح قد أصاب عدوهم كما أصابهم وهذه حكمة الله الماضية فى المداولة بين الكفر والإيمان لحكم يعلمها - تعالى - من محص صفوف الإيمان ومحق جنود الكفر والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

---

(١) انظر تفسير القاسمى محاسن التأويل: جـ٢ ص٥٠٠، ٥٠١.

(٢) سورة آل عمران: ١٣٧ - ١٤١.

ويرى العلامة ابن كثير أن اسم الإشارة (هذا) يقصد به القرآن الكريم (ففيه خبر ما قبلكم وهدى لقلوبكم وموعظة أى زاجر عن المحارم والمآثم ثم يوضح أمر هذه الحكمة الماضية والسنة النافذة فى ضوء الآية الكريمة فيقول : وأنتم (إن كنتم قد أصابتكم جراح وقتل منكم طائفة فقد أصاب أعدائكم قريب من ذلك من قتل وجراح) (وتلك الآيام نداولها بين الناس) أى نديل عليكم الأعداء تارة وإن كانت لكم العاقبة لما لنا فى ذلك من الحكمة ولهذا قال تعالى ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[1].

(وفى هذه الآيات الكريمة إشارة إلى سنة الله الجارية فى المكذبين ليقول للمسلمين إن انتصار المشركين فى هذه المعركة ليس هو السنة الثابتة إنما هو حادث عابر وراء حكمة خاصة . . فالقرآن الكريم يرد المسلمين هنا إلى سنن الله فى الأرض يردهم إلى الأصول التى يجرى وفقها الأمور فهم ليسوا بدعًا فى الحياة فالنواميس التى تحكم الحياة جارية لا تتخلف والأمور لا تمضي جزافًا إنما هى تتبع هذه النواميس فإذا هم درسوها وأدركوا مغازيها تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث وتبدت لهم الأهداف من وراء الوقائع واطمأنوا إلى ثبات النظام الذى تتبعه الأحداث وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان فى ماضي الطريق ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين لينالوا النصر والتمكين بدون الأخذ بأسباب النصر وفى أولها طاعة الله وطاعة الرسول .

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم : جـ١، ص٤٠٨ بتصرف وترتيب .

والسنن التى يشير إليها السياق هنا ويوجه أيضًا نظرهم إليها هى:

بيان عاقبة المكذبين على مدار التاريخ ومداولة الأيام بين الناس.

والابتلاء لتمحيص السرائر وامتحان قوة الصبر على الشدائد واستحقاق النصر للصابرين والمحقق للمكذبين.

... إن القرآن ليربط ماضى البشرية بحاضرها وحاضرها بماضيها فيشير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها وهؤلاء العرب الذين وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم ولم تكن معارفم ولم تكن تجاربهم قبل الإسلام لتسمح لهم بمثل هذه النظرية الشاملة لولا هذا الإسلام وكتابه القرآن الذى أنشأهم به الله نشأة أخرى وخلق منهم أمة تقود الدنيا.

إن النظام القبلى الذى يعيشون فى ظله ما كان ليقود تفكرهم إلى الربط بين سكان الجزيرة ومجرياتهم فضلاً على الربط بين سكان هذه الأرض وأحداثها، فضلاً على الربط بين الأحداث العالمية والسنن الكونية التى تجرى وفقها الحياة جميعًا. وهى نقلة بعيدة لم تنبع من البيئة ولم تنشأ من مقتضيات الحياة فى ذلك الزمان إنما حملها إليهم هذه العقيدة بل حملتهم إليها وارتقت بهم إلى مستواها فى ربع قرن من الزمان.. واتسع تصورهم لها.. ووقع فى حسهم التوازن بين ثبات السنن وطلاقة المشيئة فاستقامت حياتهم على التعامل مع سنن الله الثابتة والاطمئنان بعد هذا إلى مشيئة الله المطلقة»[1].

---

(١) انظر فى ظلال القرآن: جـ١، ص٤٧٨، ٤٧٩. بتصرف اختيار.

هذا وعند تتبع أقوال المفسرين لهذه الآية الكريمة نجد أن بعضهم جعل الآية الأولى والثانية ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ جعلوا هاتين الآيتين تمهيداً لما بعدها من النهى عن الوهن والحزن وما يتبع ذلك[1].

ويرفض صاحب المنار هذا التناول ويرى أنه (رأى ضعيف فإن ذكر السنن بعد آيات متعددة فى موضوعات مختلفة تفيد معانى كثيرة تحتاج إلى شرح طويل جداً لا معنى واحداً كما قيل وإن فى القرآن فى إفادة المبانى القليلة للمعانى الكثيرة بمعرفة السياق والأسلوب ما لا يخطر على بال أحد من كتاب البشر وكلماتهم ومثل هذا مما تجب العناية ببيانه)[2].

وردت لفظة سنة مجموعة كذلك فى سورة النساء فى قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[3].

والآية الكريمة واردت بعد بيان واضح وتفصيل شامل لقضية الزواج

---

(١) انظر تفسير الجلالين : ص٨٥ ـ ط دار المعرفة ـ طبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ـ وانظر تفسير القرآن العظيم: جـ١ ص٤٠٨ والكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التاويل: جـ١، ص٣٦٧ ومحاسن التأويل جـ٢، ص٤١٦ وقل من تعرض لربط الآيات ببعضها بهذه السنة الثابتة كالألوسى فى روح المعانى على اقتضاب المجلد الثاني ص٢، ص٢٧٩. ط دار الكتب العلمية ط١ الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

(٢) تفسير المنار، جـ١، ص١١٤.

(٣) سورة النساء: ٢٦.

وأمر العلاقة بين الرجل والمرأة ومن يجوز للرجل زواجها ومن لا يجوز ثم تأتى الآية الكريمة موضحة نوعًا من لطف الله - تعالى - بعباده ورحمته بخلقه بأنه يريد أن يبين لهم ويهديهم طرق الذين من قبلهم وهو عز وجل عليم وسع كل شيء وحكيم يصنع بعلمه ما يريده بحكمته.

وقفات ولمحات:

ومن خلال هذه الإطلالة السريعة فى آيات السنن فى القرآن الكريم يظهر الآتى:

أولاً: أن لفظة سنة وردت في القرآن الكريم أحيانًا مفردة (سنة) وأحيانًا مجموعة ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾.

ثانيًا: أنها أحيانًا تأتى مقطوعة عن الإضافة (أى ليست مضافة وأحيانًا تأتى مضافة وإضافتها تكون إلى الله - تعالى -: ﴿ **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾[1] أو مضافة «لنا» العظمة ﴿ **وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً** ﴾[2] وأحيانًا تضاف إلى غير الله تعالى كقوله عز وجل ﴿ **لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ** ﴾[2] ﴿ **فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ** ﴾[3]. ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ** ﴾[4].

ثالثًا: أن اللفظة وردت فى السور المكية كالحجر والإسراء والكهف

---

(١) سورة فاطر: ٤٣. (٢) سورة الإسراء: ٧٧.

(٣) سورة: فاطر: ٤٣. (٤) سورة النساء: ٢٦.

وفاطر وغافر والسور المدنية كآل عمران والنساء والأنفال والأحزاب والفتح.

رابعًا: أن السياق الذى وردت فيه اللفظة غالبًا ما يدور حول الصراع بين الحق والباطل والكفر والإيمان وصمود الكفر أمام نور الإيمان وأساليب الباطل أمام ضوء الحق الناصع.

خامسًا: إنما قد ترد عقب بيان جزء من المنهج التشريعى كما ورد ذلك فى سورة النساء عقب الحديث عن أمر الزواج ومتعلقاته.

سادسًا: أنها قد تأتى بمعنى العقوبة النافذة والقدر المحتوم وسيتضح ذلك إن شاء الله عند الحديث عن صفات السنة الإلهية الخصائص العامة لورود السنن.

●●●

المبحث الثالث

السنن الربانية فى السنة المطهرة

الناظر فى سيرة الرسول ﷺ كلاما وعملاً وهى الجانب التفصيلى للقرآن الكريم يجد كيف كان - صلوات الله وسلامه عليه - يحسن التعامل مع سنن الله فى كونه وقوانينه فى عباده فما من معركة إلا والرسول ﷺ يتعامل مع الأسباب يجعل مقدمة ومؤخرة وميمنة وميسرة وقائداً ثم يقبل على الله تعالى ملحًا فى دعائه مبتهلاً فى رجائه فهذا نوع من إدراك سنن النصر التى تعتمد على أسباب مادية وأسباب معنوية وهذا الأخذ بالأسباب فى حد ذاته سنة من سنن الله تعالى فى الكون، وفى مجال التربية حين يربى الرسول ﷺ أصحابه على قيمة من القيم تلمح استصحاب هذا الإدراك القوى للسنن التى بثها الله - تعالى - فى خلقه فحديثه عن اتباع سنن من قبلنا من الوضوح بمكان وإرشاده لمن يستجديه من الناس إلى سنة الله فى الرزق واضحة عندما يأمره بأن يذهب فيشترى قدوما ويحتطب وإرشاده الأعرابى إلى عقل الناقة وربطها عندما قال له يا رسول الله أتركها وأتوكل على الله قال ﷺ بل اعقلها وتوكل.

وتصويره للمجتمع الذى يتعاون على البر والتقوى والذى يتعاون على الإثم والعدوان بمجتمع فى سفينة فى قوله ﷺ «**مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها وكان الذين فى أسفلها إن أرادوا الماء**

مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»[1] تصوير دقيق لسنن الله تعالى فى الأجسام والمجتمعات فإذا كانت السفينة يحكمها قانون الطفو فإن المجتمع يحكمه قانون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وكقوله ﷺ **«مثل المؤمنين فى توادهم وترحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»**.

وكقوله: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه ببعضا»**[2].

ومن أروع ما يدل على حرص الرسول ﷺ على تعلم أصحابه وأمته إدراك السنن الإلهية قوله لزياد بن لبيد: بعد أن ذكر شيئًا وقال وذلك عند ذهاب العلم، قلنا يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبنائنا وأبناؤنا يقرؤونه أبناءهم إلى يوم القيامة: فقال: **«ثكلتك أمك يا ابن لبيد إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشىء»**[3].

وهذا الحديث الشريف يوضح إرشاد الرسول ﷺ لأصحابه إلى أمر

---

(١) صحيح البخارى: كتاب الشركة ـ باب (عل يقرع فى القسمة والاستهام فيه) ـ والترمذى: كتاب الفتن، وأحمد (أول مسند الكوفيين).

(٢) صحيح البخارى: كتاب الصلاة ـ باب (تشبيك الأصابع فى المسجد وغيره) ومسلم: كتاب البر والصلاة والآداب.

(٣) ذكره ابن كثير: جـ٢، ص٧٦.

السنن التى تعم الجميع وتمضى بلا استثناء وفى هذا إجابة عن السؤال الحائر على شفاه المسلمين كيف يكونون مسلمين وتظل أحوالهم بهذا التخلف والتأخر والجمود الذى صاغه شوقى بقوله :

وقل يا رسول الله يا خير مرسل

أبثك ما تدرى من الحسرات

شعوبك فى شرق البلاد وغربها

كأصحاب كهف فى عميق سبات

بأيمانهم نوران ذكر وسنة

فما بالهم فى حالك الظلمات

فليس المراد من قوله ﷺ (وذلك عند ذهاب العلم) ارتفاع المعارف والثقافة من الكتب والرؤوس بل ارتفاع الارتباط بينها وبين السنن الكونية وإحسان التعامل بهذا العلم مع تلك السنن.

والصحابة الكرام بدورهم كانوا على علم ووعى بهذه السنن ومن أبرز الذين ظهرت فى حياتهم وأقوالهم هذه السنن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الذى قال عنه ابن مسعود عندما مات (مات تسعة أعشار العلم فقيل له أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة فقال لم أرد علم الفتيا والأحكام إنما أريد العلم بالله تعالى)[1].

وفى علم الصحابة بعلم السنن الإلهية يقول صاحب المنار (وإننى لا

---

(١) تفسير المنار: جـ٤ / ١١٥.

أشك فى كون الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنن وعالمين بمراد الله من ذكرها يعنى أنهم بما لهم من معرفة أحوال القبائل العربية والشعوب القريبة منهم ومن التجارب والأخبار فى الحرب وغيرها بما منحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط كانوا يفهمون المراد من سنن الله تعالى ويهتدون بها فى حروبهم وفتوحاتهم وسبب سبقهم للأمم التى استولوا عليها لذلك قال: وما كانوا عليه من العلم بالتجربة العمل أنفع من العلم الفطرى المحض وكذلك كانت علومهم كلها ولما اختلفت حالة العصر اختلافا احتاجت معه الأمم إلى تدوين علم الأحكام وعلم العقائد وغيرها كانت محتاجة أيضا إلى تدوين هذا العلم ولك أن تسميه علم السنن الإلهية أو علم الاجتماع أو علم السياسة الدينية سم بما شئت فلا حرج فى التسمية)[1].

وهكذا يتضح علم الصحابة الكرام بهذا العلم الذى هو من أدق أنواع العلوم وأولاها بالحرص والانتفاع والذى ما فقد المسلمون توازنهم بحق إلا بعد أن فقدو الاستفادة منه.

• • •

(١) المرجع السابق نفسه.

المبحث الرابع

أهمية دراسة السنن والآثار المرتبة على إهمالها

النظر فى السنن الإلهية فريضة وضرورة فهو فريضة للآيات الكريمة التى تحث على النظر والسير والاعتبار بمن خلوا، والتفكر فى آثار الذاهبين فالسعيد من وعظ بغيره والشقى من وعظ بنفسه وضرورة للواقع المعيش الذى يحياه المسلمون ولأمر ما كانت توجيهات القرآن الكريم للمسلمين عقب كل قصة من قصصه فى خلاصة نادرة فإنها اختزال للحدث كله وإشارة إلى اللاحقين للانتفاع من أحوال السابقين فعندما تقرأ قصة قارون فى سورة القصص تجد فى نهايتها ما يشبه السنة العامة والقانون المطرد فى قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(١).

وهكذا فى كل قصة من قصص القرآن الكريم حتى يظل عطاء القرآن الكريم ماضيا ما مضى الليل والنهار ومعطاء ما وجد من يعى ويعتبر، وقليل من العلماء السابقين الذين توقفوا عند النظر فى سنن الله تعالى والكتابة حولها ومن أبرز هؤلاء صاحب الإحياء حجة الإسلام الإمام الغزالى ـ رحمه الله ـ الذى يُقَسِّم العلم إلى محمود ومذموم ويقول فى بيان قدر المحمود من العلم المطلوب (وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وسنته فى خلقه وحكمته فى ترتيب الآخرة على الدنيا فإن هذا علم مطلوب

---

(١) سورة القصص: ٨٣.

لذاته وللتوصل به إلى مادة الآخرة وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب فإنه البحر الذى لا يدرك غوره وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه بقدر ما يسر لهم وما خاض أطرافه إلا الأنبياء والأولياء والراسخون فى العلم على اختلاف درجاتهم بحسب اختلاف قوتهم وتعاون تقدير الله تعالى فى حقهم وهذا هو العلم المكنون الذى لا يسطر فى الكتب ويعين على التنبيه له التعلم ومشاهدة أحوال علماء الآخرة.. هذا فى أول الأمر ويعين عليه فى الآخرة المجاهدة والرياضة وتصفية القلب وتفريغه عن علائق الدنيا والتشبه فيها بالأنبياء والأولياء ليتضح منه لكل سائح إلى طلبه بقدر الرزق لا بقدر الجهد ولكن لا غنى فيه عن الاجتهاد فالمجاهدة والرياضة مفتاح الهداية لا مفتاح لها سواه[1].

فانظر - رعاك الله إلى مدى أهمية هذه النظرة إلى هذا الجانب من جوانب فعل الله تعالى فى خلقه والتى جعلها الإمام الغزالى مساوية للعلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله وهل سنن الله فى خلقه وكونه إلا صنف من أفعاله سبحانه؟ ومن الذين لمحوا أهمية دراسة السنن وضرورة التعرض لها والاستفادة منها، حكيم الإسلام الأستاذ الإمام (محمد عبده) - رحمه الله تعالى - والذى وصف تفسيره بأنه (يبين حكم التشريع وسنن الله فى الإنسان وكون القرآن هداية للبشر فى كل زمان ومكان ويوازن بين هدايته وما عاين المسلمون فى هذا العصر) إذ يقول: - رحمه الله - (إن إرشاد الله إيانا إلى أن له فى خلقه سننا يوجب علينا أن تجعل هذه السنن علمًا من العلوم المدونة لنستديم ما فيها من

---

(١) انظر إحياء علوم الدين: جـ١، ص٤٥ ط عيسي البابى الحلبى بدون تاريخ.

الهداية والموعظة على أجمل وجه فيجب على الأمة فى مجموعها أن يكون بها قوم يبينون لها سنن الله فى خلقه كما فعلوا فى غير هذا العلم من العلوم والفنون التى أرشد الله إليها القرآن بالإجمال.. والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها والقرآن يحمل عليه فى مواضع كثيرة وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم إذ أمرنا أن نسير فى الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها[1].

وجعله رحمه الله المرتبة العلية فى فهم تفسير القرآن الكريم وتفسيره لا يتم إلا بأمور من أهمها (علم أحوال البشر) أو علم السنن الإلهية (فقد أنزل الله القرآن وبين فيه كثيراً من أحوال الخلق وطباعهم والسنن الإلهية فى البشر وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها فلابد للناظر فى هذا الكتاب من النظر فى أحوال البشر وأطوارهم وأدوارهم ومناشيء اختلاف أحوالهم من قوة وضعف وعز وذل وعلم وجهل وإيمان وكفر ومن العلم بأحوال العالم الكبير علويه وسفليه ويحتاج فى هذا إلى فنون كثيرة من أهمها علم التاريخ بأنواعه أجمل القران الكلام عن الأمم وعن السنن الإلهية وعن آياته فى السموات والأرض وفى الآفاق والأنفس وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شيء علماً وأمرنا بالنظر والتفكر والسير فى الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذى يزيدنا ارتقاء وكمالاً ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة فى ظاهره لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمة)[2].

---

(١) تفسير المنار: جـ٤، ص١١٤، ١١٥ بتصرف يسير.

(٢) انظر تفسير المنار: جـ١، ص١٠، ٢١ بتصرف يسير.

وتظهر أهمية دراسة السنن الإلهية فى الكون والقرآن الكريم عندما يظهر أن هذه السنن بصفاتها السابقة وسماتها الثابتة تتلاقى مع السنن الكونية التى تجرى على سائر البشر فتعلم أن الثانية وجه آخر للأولى بل وطريقة مأمون للدلالة على الله تعالى من أقرب طريق وهو طريق النظر فى (الأنفس والآفاق) التى قال عنها القرآن الكريم ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾(١).

فالعلم بالسنن الإلهية من أعظم الوسائل لكمال العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله وأقرب الطرق إليه وأقوى الآيات الدالة عليه وأعظم العلوم التى يرتقى بها البشر فى الحياة الاجتماعية المدينة فيكونون بها أعزاء أقوياء سعداء وإنما يرجى كمال الاستفادة منه إذا نظر فيه إلى الوجه الربانى والوجه الإنسانى جميعًا)(٢).

وهذا النظر إلى السنن يجعل الإنسان أقدر على التعامل مع سنن الكون ونواميس الحياة الثابتة بلا تغير المطردة بلا توقف الماضية على الأفراد والجماعات والشعوب وهذه المعرفة لسنن الله تعالى فى الآفاق والأنفس لا تقل فى أهميتها عن معرفة قوانين المادة والتعامل معها (فإن لسلامة النظرية أثرا هاما فى الوصول إلى الحل بلا توقف الحل على صحتها ومقدار وضوحها.. ومن أكبر الظلم الذى ينزله الإنسان بنفسه أن لا يرى العلاقة التسخيرية الموجودة بين الإنسان والكون والمجتمع

---

(١) سورة فصلت: ٥٣.

(٢) انظر تفسير المنار: جـ٧، ص٤١٧ بتصرف يسير.

(الآفاق والأنفس) فيهمل نفسه ولا يضعها في المكان الذى يسخر الآفاق والأنفس على أساس السنن المودعة فيها[1] .

وإذا نظرنا إلى مجال من مجالات المادة كالطب مثلاً أدركنا مدى أهمية دراسة السنن ومعرفتها (فالطب بما وصل إليه من كشف قوانين الصحة والمرض العضوى للكائن الحى مَكّنَ الطبيب من السيطرة بواسطة هذه القوانين وتسخيرها من التغلب على الأمراض والآفات، فالذى يعلم هذه القوانين يمكنه أن يستخدم إزاء المرض إجراءات فورية في الدواء والغذاء والعمل وأخرى مرحلية لإعادة التوازن إليه، إن الذى يمكن أن يقوم بمثل هذا العمل هو من يعرف القوانين التى يخضع لها الكائن الحى بينما إنسان آخر لا يعرف القوانين ولا كيفية التدخل لإعادة التوزان فهو ينظر إلى المريض ويرى آثار المرض من الآلام والعجز عن الحركة وعن القيام بمهمات الحياة اليومية بينما يرى هذه الآثار واضحة مؤلمة لا يستطيع أن يتدخل فيها ولا يمكنه أن يدرك مقدار الخطورة ولا الوسائل القريبة أو البعيدة التى ستنقذ هذا المريض أو تحطمه، إنما يملك فقط أن يذرف الدمع بغزارة على آلام من يحب)[2] .

وإذا تجاوزنا هذا الجانب الملاحظ من قوانين المادة والذى لا يختلف عليه اثنان لأنه واقع محسوس ومعيش ملموس عند الجميع إذا تجاوزنا ذلك إلى أمراض المجتمع من تحلل خلقى للفساد وعدم قدرة على الحياة حياة صحيحة صحية أدركنا أنه يوجد تشابه كبير بين الجسد الإنسانى

---

(١) حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص١٤، ١٥ . بتصرف وترتيب .

(٢) السابق ص١٧ بتصرف يسير .

والجسد الاجتماعي في احتياج كل منهما إلى الطبيب المداوي والنطاسي الحاذق الذي يشخص الداء ويصف الدواء حتى يلبس مريضه ثوب صحته وعافيته، ويشفي شفاء لا يغادر سقما، والعجيب في ذلك أن الناس يعون تمام الوعي مدى حاجتهم إلى معرفة قوانين الطب لفحص أجسادهم وقوانين الهندسة لتصح حياتهم ولا يدركون الحاجة الماسة إلى قوانين المجتمع أو «السنن الإلهية» لتصح أولاهم وأخراهم وقد نجد أطباء أجساد كثيرين لكننا لا نجد أطباء مجتمع على علم بقوانين الله في الاجتماع العمراني والاختلاط البشري حتى أثر ذلك في قواعد الفكر لا أقول عند عامة الناس بل عند خواصهم وخواص خواصهم من العلماء فضلاً عن عامة الناس.

إن هؤلاء جميعًا الذين نراهم حريصين على المجتمع وصحته وسلامته وإنعاشه من غيبوبته لا ينقصهم إخلاص ولا حرارة حماس وإنما ينقصهم فهم شمولي يستوعب التعامل مع نواميس الكون وسنن الحياة (إنهم يبكون على الإسلام الذي أخذ أهله ينحسرون عنه كما يبكي المحب الجاهل على المريض الذي اشتدت عليه وطأة المرض بينما كان نفعه لهذا المريض أجدى لو سعى ليعلم طريقة علاج المرض ذلك أن الله تعالى ما أنزل داء إلا أنزل له دواء وما يقال في أمراض الجسم يقال في أمراض المجتمع[1].

وعدم إدراكنا لهذا الترابط الموجود بين معطيات الكون هو الذي حرمنا الاستفادة من الكثير من خيره بل يوقعنا في الكثير من شره لأن

---

(١) حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص٢٢.

قوانين الله تعالى لا تحابى ولا تجامل بل يمضى على اللاحقين ما مضى على السابقين إذا سلكوا نفس سبيلهم ونسجوا على منوالهم.

وإذا تجاوزنا عصر الصحابة الكرام إلى ما بعدهم إلى الآن نجد الذين عنوا بالدراسات والكلام فى علم السنن بصفة عامة لا يتجاوزن أصابع اليدين ومن هنا أصبحت نظرتنا إلى الكون والحياة بغير المقياس الذى أرادنا الله تعالى أن نقيس به فالقرآن الكريم يقول عن نفسه ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾(١) فهل فهم المسلمون هذه المقاييس التى يعتمدها القرآن الكريم فى حكمه على الأشياء حتى يصلوا إلى (التى هى أقوم)؟

هناك خلاصات كثيرة ومعتصرات من أحوال الأمم والشعوب تحدث عنها القرآن الكريم فما أفاد المسلمون منها قليلاً ولا كثيراً، يحدثهم القرآن على أمم فنيت لأسباب وتحللت قواها وضاع مجدها لأنها لم تأخذ بأسباب البقاء ونرى المسلمين يقومون بنفس الدور الذى قام به السابقون من الأمم الماضية دون أن يتعظوا واتبعوا سننهم ونسجوا على منوالهم رغم تشريح القرآن الكريم لأسباب البقاء والفناء للأمم والشعوب فى آيات كثيرة وما خبر الملأ الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت عنا ببعيد!.

إن القرآن الكريم مليء بهذه الخلاصات المعتصرة من تجارب السابقين

---

(١) الإسراء: ٩.

اقراء مثلا قوله تعالى ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] بعد أن ساقت السورة الكريمة قصة قارون لتؤكد للمسلم أن الاستبداد السياسى والحكم الفردى بدعائمه وقوائمه وخيم العاقبة وأن الغلب فى النهاية للمتقين فهل انتفع من هذه الخلاصة المسلمون فى طريقة حكمهم لقد أخذوا من فرعون وقارون أهم الصفات وأخص السمات فصار معظمهم فراعين حاكمة وقوارين كانزة ولله الأمر من قبل ومن بعد.

واقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2] لترى فيه القانون الثابت فى آثار الاستقامة.

واقرأ قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾[3] لنرى باطمئنان أن النصر فى النهاية للحق والظفر فى الخاتمة للصدق واقرأ ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[4]، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[5] و﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[6] لنرى بوضوح ملامح قانون النصر ونرى معه كم أفدنا نحن المسلمين من هذا القانون فى تعاملنا مع غيرنا واقرأ قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[7]

---

(١) القصص: ٨٣.

(٢) يوسف: ٩٠.

(٣) يونس: ٨١، ٨٢.

(٤) محمد: ٧.

(٥) آل عمران: ١٢٦.

(٦) آل عمران: ١٦٠.

(٧) الرعد: ١١.

وقوله تعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1] لترى بجلاء لا يساوره غبش ووضوح لا يعتليه شك ضوابط قانون التغيير وكم أفدنا نحن المسلمون الرغابين فى تغيير أحوالنا وأوضاعنا الراهنة فى هذا القانون الإلهى والسنة الماضية.

واقرأ قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾[2] وقوله ﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾[3] وقوله ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[4] وقوله ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾[5] وقوله عز من قائل ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾[6] وقوله تعالى ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾[7] وقوله تعالى ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾[8].

وقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ لترى القانون الثابت فى عدم صلاح عمل المفسدين وقوله تعالى فى الحديث عن قانون الشكر والشاكرين ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي

---

(١) الأنفال: ٥٣.
(٢) آل عمران: ١٤٠.
(٣) المائدة: ١٠٠.
(٤) إبراهيم: ٧.
(٥) النحل: ١١٢.
(٦) سبأ: ١٣.
(٧) الرعد: ١٧.
(٨) النساء: ١٢٣.

لَشَدِيدٌ﴾ وقوله تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وقوله تعالى فى سورة سبأ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً﴾ إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لنرى من خلال هذه الآيات الكريمة سمات ثابتة لأمر الله تعالى فى الشاكرين والكافرين واقرأ قوله تعالى فى سنة البقاء والفناء ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ إلى قوله تعالى: ﴿تلك ايات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾ لترى فى هذه الآيات الكريمة لونا من ألوان التشريح لأسباب البقاء وعوامل الفناء من خلال رصد أمة من الأمم تسرب إليها الوهن وسرى فيها الخور.

واقرأ كذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[1] لترى قانونًا من قوانين الله تعالى فى عدم إهلاك المصلحين وهذا وعد من الله تعالى بذلك وفرق بين الصلاح والإصلاح فالإصلاح كما هو متعدى فى المبنى فهو متعدى فى المعنى كذلك فعل الرباعى أصلح الشيء يصلحه إصلاحا، ومعناه انتقال الصلاح من صاحب الدعوة إلى غيره ونجد هذا الترابط أكثر ظهوراً فى قوله تعالى سورة الأعراف ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾[2] فهناك كما هو واضح ارتباط بين صدر الآية

---

(١) هود: ١١٧.

(٢) الأعراف: ١٧٠.

(يمكسون) الذى يدل على تعدى الإمساك إلى التمسيك وعجزها (المصلحين) الذى يدل على انتقال الصلاح إلى فرد آخر بعد الداعية المصلح.

وإذا كان الله قد تعهد بعدم إهلاك المصلحين فإن هذا الوعد لا ينسحب على الصالحين لجوابه ﷺ للسيدة عائشة عندما سألته يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال: نعم «إذا كثر الخبث»[1] ونستطيع أن نقول عن هذا القانون أو تلك السنة (قانون الصالحين والمصلحين).

ولو قرأنا مثلاً قوله تعالى ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾[2] لوجدناها ترصد قانونا من قوانين الله تعالى فى طبائع البشر وهو اختلافهم المستمر الذى لا يقف عند حد.

●●●

---

(١) صحيح البخارى: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، ومسلم: كتاب الفتن وأشراطه الساعة.

(٢) هود: ١١٩ لا توجد فى هود.

الفصل الثانى

خصائص السنن الربانية وحجيتها ومواردها

المبحث الأول

خصائص السنن الربانية

مازلنا بحاجة إلى معرفة خصائص هذه السنن حتى يتسنى لنا الاستفادة منها ونحسن التعامل معها على أساس واضح ونهج سليم، ويمكن حصر هذه الخصائص فيما يلى:

السنن الإلهية حاكمه على الجميع:

الملاحظ من استقراء لفظ (سنة) ومتابعة السنن الواردة فى القرآن الكريم أن السنن الإلهية حاكمة على جميع الأفراد وهى صورة أخرى من صور فعل الله تعالى تقابل الصورة الأولى والتى تمثل السنن الكونية فإذا كان القرآن الكريم يقول فى السنن الكونية أعنى الظواهر الطبيعية ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[١] ويقول ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾[٢] بما يظهر للرأى حاكمية هذه الظاهر الكونية، ويقول (فى وصف جريان الشمس على قانون منضبط ونظام ثابت ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا

---

(١) سورة الحج: ٥-٦. (٢) الأنبياء: ٣٠.

الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1] وكما أن السنن الكونية أو الظواهر الكونية حاكمة على الجميع فتغلى المياة عند درجة مائة وتتجمد عند درجة صفر وتعطى هذه النتيجة لكل من يتعامل معها بغض النظر عن دينه ومذهبه فكذلك السنن الإلهية فى الأفراد والأمم والمجتمعات، فإذا وقفنا عند قانون من قوانين الله تعالى ـ كقانون النصر نعلم أن له ضوابط ومعالم تنسحب على الجميع دون مجاملة ولا محاباة والناظر فى حياة الرسول ﷺ وسيرته يجد هذا المعنى واضحًا فعندما أخذ الصحابة سنة الله فى النصر مثلاً أتى النصر لهم أكله وأعطى ثمره وعندما خالفوا أمر الرسول ﷺ وترهلت قبضتهم عن عنصر من عناصر النصر لم تنخرم لهم القاعدة ولم تتبدل لهم السنة بل حكمت عليهم وفيهم أعظم خلف الله ﷺ ولعل أبرز مثال على ذلك موقف المسلمين فى غزوة أحد عندما خالفوا أمر رسول الله ﷺ وتركوا حماية ظهورهم من أعلى الجبل ـ أقصد فصيلة الرماة فقد تبدل الأمر وتحول من نصر إلى هزيمة لأنهم لم يحققوا سبب النصر من السمع والطاعة ا لمطلقة للرسول ﷺ (لقد كان المسلمون السابقون على ثقة من نصر الله تعالى لهم وكانت موقعة بدر أول تباشير هذا النصر فلما رأوا أن الله تعالى نصرهم على قلتهم وضعفهم بعد ما كان من دعاء الرسول ﷺ وتضرعه واستغفاره ربه زادهم ذلك إيمانًا بأنهم هم المصنورون ولكن وقع فى نفوس الكثيرين إن لم نقل فى نفوس الجميع أن نصرهم سيكون بالآيات

---

(١) سورة يس: ٣٨ ـ ٤٠.

العناية الخاصة من غير التزام للسنن الإلهية فى الاجتماع البشرى وإن وجود الرسول ﷺ فيهم ودعاءه على أعدائهم هما أفعل فى التنكيل بالكفار من التزام الأسباب الظاهرة التى أهمها طاعة القائد والتزام النظام العسكرى وغير ذلك ولكن الإسلام دين الفطرة لا الفوارق هذا البيان الإلهى فى هذه الواقعة تمكن فى النفوس ما لا يتمكن لو لم يكن مقرونًا بواقعة مشهودة لا مجال معها لتاويله ولا لتخصيصه أو تقييده)[١].

ذلك أن السنن سنن عامة تتطبق على البشر جميعًا وليست خاصة بطائفة دون طائفة ولا لجيل دون جيل « والذين يؤكد عمومية الموضوع أن الله يقول للرسول ﷺ ».

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[٢] ويصور الرسول ﷺ هذا الموضوع بصورة من يرى المستقبل من خلال السنن حين يقول (لتتبعن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة)[٣] حتى إنه يصل فى المشابهة إلي أن يحشرهم فى جحر الضب ومثل هذا النظر إلى الموضوع هو الذى نفتقده الآن وعلينا أن نكسبه هذه النظرة القرآنية هى التى تجعل المسلم قادراً على الاعتبار الذى يلح عليه القرآن، فأما منا تجارب القرون الأولى تجارب كثيرة تظهر فيما سنن الأقوام التى يخضع لها المسلمون أيضًا

---

(١) انظر تفسير المنار: جـ٤، ص٩٧، ٩٨ بتصرف سير.

(٢) سورة الأحقاف: ٩.

(٣) الحديث...

كأى قوم من الأقوام وهذا النظر القرآنى يجرد الإنسان من ملابساته ويرجعه إلى أصله المجرد الذى يخضع للسنن)[1] فالسنة الإلهية يجزى على الجميع لا فرق بين مجتمع ومجتمع ولا فرق بين ديانة وديانة ولا فرق بين جيل وجيل وإلا لما دعا القرآن الكريم إلى التفكر فى آثار السابقين فالذى يفهم السنن الإلهية وعمومها يملك القدرة على التعامل مع هذه السنن ويحسن الاستعداد لنتائجها وقد قال قوم جهلوا ذلك ندمًا فى الآخرة ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[2].

السنن الربانية مطردة:

وكما تتسم السنن الإلهية (بالحاكمية والهيمنة) على الجميع فهى أيضًا مطردة لا تتخلف ولا تتبدل ومن هنا أمرنا الله تعالى بالاتعاظ والاعتبار ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[3] وذلك بعد أن ذكر لنا حال يهود بنى النضير أى «لتعظوا ما جرى عليهم من الأمور الهائلة على وجه لا تكاد تهتدى إليه الإفكار واتقوا مباشرة ما أداهم إليه من الكفر والمعاصى واعتبروا من حالهم فى غدرهم واعتمادهم على غير الله تعالى الصائرة سببًا لتخريب بيوتهم بأيديهم وأيدى أعدائهم ومفارقة أوطانهم كارهين إلى حال أنفسكم فلا تعولوا على الأسباب وتعتمدوا

---

(١) انظر حتى يغيروا ما بانفسهم ط مطبعة الحسين الجديدة ط الثالثة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص٢٧، ٢٨ بتصرف واختيار للاستاذ جودت سعيد.

(٢) سورة الملك: ١٠.

(٣) سورة الحشر.

على غيره عز وجل بل توكلوا عليه)[1] وحفل القرآن الكريم بالآيات التى تثبت هذا المعنى وتقويه وبعض الناس يخرج النكبات التى تصيب الصالحين عند عدم تعاملهم مع الأسباب - يخرجها على أنها ابتلاء ورفع درجات أو تكفير سيئات وما أشبه هذا الكلام ولكن الصواب أنه راجع إلى عدم تخلف السنن واطرادها فى كل حال (إن القرآن الكريم بين للناس أن مشيئة الله تعالى فى خلقه إنما تنفذ على سنن حكيمه وطرائق قوية فمن سار على سننه ظفر بمشيئة الله وإن كان ملحداً أو وثنياً ومن تنكبها خسر وإن كان صديقاً ونبياً.

وكأن بعض المسلمين لم يكونوا قد حفظوا ما ورد فى السور المكية من إثبات سنن الله فى خلقه وكونها لا تتبدل ولا تتحول - أو حفظوه ولم يفقهوه ولم يظهر لهم انطباقه على ما وقع لهم فى أحد.. لذلك صرح لهم بأن سننه عامة جرى عليها نظام الأمم من قبل وأن ما وقع لهم مما يقص حكمته عليهم مطابق لتلك السنن التى لا تتحو ولا تتبدل)[2] وكانت عناية القرآن الكريم بهذا المعنى أى اطراد السنن الإلهية عظيماً فبعد أن تحدث عن الذين اعتدوا فى السبت من بنى إسرائيل قال ﴿ **ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين * فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين** ﴾[3].

---

(١) انظر روح المعانى للالوسى جـ٢٨، ص٢٣٥ ط دار الكتاب العلمية - ط الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

(٢) انظر تفسير المنار: جـ٤، ص١١٦ بتصرف سير وانظر فى هذا المعنى صفات ٤٥، ١٣٤ من نفس الجزء. وجـ١، ص٢٨٥، ٩ ٣٤، جـ٢، ٢١٤، ٢١٥، ٢٣٨.

(٣) الأعراف: ٦٥، ٦٦/ ٢٩٣، جـ٨، ص١١، ١٢.

وفى (سنة) الرسول ﷺ ما يؤكد هذا المعنى فقد صح عن رسول الله ﷺ فيما ذكره ابن كثير فى تفسيره عن زياد بن لبيد قال (ذكر النبى ﷺ شيئًا فقال وذلك عند ذهاب العلم قلنا يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبنائنا وأبناءنا يقرئونه لأنبائهم إلى يوم القيامة فقال: ثكلتك أمك بابن لبيد إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء)[1]

١ ـ من هنا نستطيع أن نقول إن السنن الإلهية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل.

٢ـ حاكمة لا تحابى ولا تجامل.

٣ـ عامة لا تستثنى ولا تنتخب.

•••

---

(١) ذكره ابن كثير عند تفسير الآية: ٦٦ من سورة المائدة الجزء ٢ ص٧٦ الحلبى وقال: هكذا رواه ابن ماجة عن أبى بكر بن أبى شيبة عن وكيع به نحوه وهذا إسناده صحيح.

المبحث الثانى

حجية السنن الربانية

سبق أن تناولت الدراسة الحديثة عن خصائص السنن الربانية من الشمول والاطراد وعدم التبدل أو التحول ويطرأ هنا سؤال هل السنن الربانية دلالتها قطعية أو ظنية والنظر فى آيات السنن الربانية يجد فى البداية أنها قطعية الثبوت وذلك لأنها جزء من ايات القرآن الكريم الذى ثبت كله ثبوتا قطعيا أما دلالتها من حيث كونها حجة يعتمد عليها ويستدل بها فإنها أيضًا قطعية الدلالة على المراد منها وذلك لكثرة تكررها والتأكيد عليها وعلى مدلولاتها والأمر فى خواتيمها بالاعتبار والاتعاظ سواء كان ذلك فى الآيات التى ورد فيها لفظ « السنن » صراحة أو الآيات التى تناولت تفصيل السنن كالتداول الحضارى والأجل والتسخير والإهلاك وشكر النعم وكفرها، والتغيير والترف والمترفين إلى غير ذلك من السنن المبثوثة فى القرآن الكريم.

ولو لم تكن السنن الربانية قطعية الدالة لما أمر الله تعالى بالسير فى الأرض والنظر فيمن جرت عليهم سننه عز وجل كقوله: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾[1].

---

(١) آل عمران: ١٣٧ - ١٤١.

ومن هنا فهم العقلاء هذه الحجية للسنن الربانية فاستدلوا بها وأقاموا من خلالها الحجة على أقوامهم فمؤمن آل فرعون يقول لقومه ساحبًا حكم من سبق عليهم لتحققهم بصفاتهم ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾[1].

فالذى يتأمل هذه الآيات الكريمة يجد كيف استدل مؤمن آل فرعون بالسنن التي مضت فى الأمم السابقة (مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم).

وحقيقة السنن التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين وعلى أساس هذا يكون الاستدلال بالسنة يقول ابن تيمية - رحمه الله - وحقيقة الاستدلال بسنته وعادته هو اعتبار الشيء بنظريه وهو التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين وهو الاعتبار المأمور به فى القرآن كقوله تعالى : ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾[2] وقوله - عز وجل - ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ

---

(١) سورة غافر : ٣٠ - ٣٤ .

(٢) آل عمران : ١٣ .

كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾(١).

وإنما تكون العبرة بالقياس والتمثيل فإذا عرفت قصص الأنبياء ومن اتبعهم ومن كذبهم وأن متبعيهم كان لهم النجاة والعافية والنصر والسعادة ولمكذبيهم الهلاك والبوار جعل الأمر فى المستقبل مثلما كان فى الماضى فعلم أن من صدقهم كان سعيداً ومن كذبهم كان شقيًا وهذه سنة الله وعادته ولهذا يقول الله فى تحقيق عادته وسننه وأنه لا ينقضها ولا يبدلها ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾(٢).

هذا تطبيق الاعتبار والقياس ثم قال: (أم لكم براءة فى الزبر، فنفى الدليل العقلى والسمعى فيقول فإذا لم يكونوا خيرا منهم فكيف ينجون من العذاب مع مماثلتهم لهم)(٣).

وهكذا يتضح أن السنن قطعية الدلالة على مرادها لأنها لو لم تكن كذلك لما كانت مطردة سارية على الجميع.

السنن الربانية والنسخ:

وإذا كان الأمر كذلك فإن النسخ الذى هو بمعنى الإزالة والمحو: لا

---

(١) الحشر: ٢.　　　　(٢) القمر: ٤٣.

(٣) قدر الدعوة: ط مكتبة الحرمين للعلوم النافعة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص٧١، ٧٢، للأستاذ رفاعى سرور نقلاً عن ابن تيمية.

يطرأ على السنن الربانية وذلك حتى تستمر خصائص هذه السنن وفعاليتها فى الأمم الحاضرة والآتية كما انطبقت على الأمم الماضية فعموم السنن ينافى نسخها واطرادهما أيضًا ينافى نسخها فكل خصيصة من خصائص السنن الإلهية تثبت أن النسخ لا يتفق مع السنن ولا يجرى عليها وإلا فإن معظم موارد السنن الربانية يكمن فى القصص القرآنى والأمثال وهذه الأبواب لا يدخلها النسخ باتفاق العلماء لأنها أخبار والجانب الإخبارى فى القرآن لا يتطرق إليه النسخ.

السنن الربانية والإعجاز:

قلنا إن السنن تجرى حَسْب نظام دقيق منضبط لا يتغير ولا يتحول ولا ينخرمن لسبب من الأسباب فهل هذا الانضباط والسير المطرد ينافى الإعجاز أو المعجزة: الواقع أن السنن الربانية إذا كانت تجرى (بحسبان) وعلى نظام منضبط فإن المعجزة أيضًا تجرى حسب نظام منضبط لكن الخط الذى تجرى فيه السنن غير الخط الذى تجرى فيه المعجزة والمجال الذى تعمل فيه السنن غير المجال الذى تعمل فيه المعجزة فالمعجزة (أمر خارق للعادة.يظهره الله على يد مدعى النبوة إثباتا له فى مدعاه، أو أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى وعدم المعارضة أو هى أمر قصد به إظهار صدق من ادعى النبوة والرسالة)[1].

وتلك المعجزات التى يؤيد الله تعالى بها أنبياءه ومرسليه هى ما تسمى الخوارق.

---

(١) شرح المقاصد للعلامة سعد الدين التفتازانى، ج٣، ص٢٧٣، ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط أولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

أو تسمى السنن الخارقة وهى التى تقابل السنن الجارية فإذا كانت السنن الجارية تمضى حسب ناموس منضبط ظاهر للناس عرفوه وألفوه فإن المعجزة أو السنن الخارقة أيضًا تجرى حسب ناموس منضبط لكنه مغاير للناموس الذى تجرى عليه السنن الجارية (فالله تعالى له من طلاقة القدرة بحيث يخفى الظاهرة عن القانون الذى يحكمها سواء أكان فى الطبيعة أم كان في الأحياء أم كان فى الاجتماع والسلوكيات ففى مجال الطبيعة مثلاً ما ورد فى الشرع من حادثة انشقاق القمر وانفلاق البحر وحجب السكين عن طبيعتها وهى القطع وحجب النار عن طبيعتها وهى الإحراق وفى مجال الحياة وقوانينها نرى إبراهيم عليه السلام يلقى فى النار ولا يحترق ولا يموت من نقص الأكسجين ويونس ـ عليه السلام ـ يعيش فى بطن الحوت تحت طبقات الماء فترة من الزمن ولا تتأثر حياته بذلك .

وفى مجال الاجتماعيات نرى أن موسى عليه السلام ينتصر بقلبي العصا ثعبانا وأن سيدنا محمد ﷺ ينتصر بمعونة خمسة آلاف من الملائكة[١] ولا تعارض هنا بين السنن الثابتة الجارية والسنن الخارقة فكل جيرى حسب قانونه المنضبط لا يحيء عنه ولا يميد .

والسنن الجارية كما رأينا فى خصائصها لا تستثنى ولا تحابى (حتى معجزة الأنبياء التى قد تفهم على أن معناها قائم على خرق السنة فإننا نجد أن معناها لا يقوم ألا إلا على أساس حقيقة السنة يقول ابن تيمية

---

(١) مدخل إلى دراسة السنن الإلهية : ص٢٣، نقلاً عن الهجرة بين سنة الله الجارية والخارقة، ص١٩ .

وحقيقة الأمر أن ما يدل على النبوة هو آية على النبوة وبرهان عليها فلابد أن يكون مختصا بها ولا يكون مشتركا بين الأنبياء وغيرهم والرب تعالى لا ينقض عادته التى هى سنته فى التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين فهو سبحانه إذا ميز بعض المخلوقات بصفات يمتاز بها من غيره ويختصه بها قرن بذلك من الأمور ما يمتاز به عن غيره ويختص به، ولا ريب أن النبوة يمتاز بها الأنبياء ويختصون بها والله - تعالى - يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس وهو أعلم حيث يجعل رسالته فمن خصه بذلك كان له من الخصائص التي لا تكون لغيره ما يناسب ذلك فيستدل بتلك الخصائص على أنه من أهل الاختصاص بالنبوة وتلك سنته وعادته فى أمثاله يميزهم بخصائص يمتازون بها من غيرهم ويعلم أن أصحابها من ذلك الصنف المخصوص الذين هم الأنبياء مثلاً فلم تكن له سبحانه عادة بأن يجعل مثل ايات الأنبياء لغيرهم حتى يقال إنه خرق عادته ونقضها بل عادته وسنته المطردة أن تلك الآيات لا تكون إلا فى النبوة والإخبار بها مع التكذيب بها أو الشك فيها[1].

فالمعجزة شيء لا يخالف العقل ولكنه يخالف المألوف والمتواتر فى المحسوس فإذا كان كل عمل من الأعمال خلقا مباشراً فى إرادة الله - تعالى - فلا فرق فى حكم العقل بين مرفوع المعجزة ووقوع المشاهدات المتكررة فى كل لحظة[2].

فالإعجاز لظواهر الكون لا يخرق السنن الجارية وإنما يمضى هو

---

(١) انظر قدر الدعوة: ص٧٣، ٧٤، نقلاً عن ابن تيمية بتصرف واختيار.

(٢) الفلسفة القرآنية ط دار الهلال بدون تاريخ ص١٨، للأستاذ العقاد.

حسب قانون خاص به لكن هناك علاقة أكيدة بين السنن الجارية والسنن الخارقة.

العلاقة بين السنن الجارية والسنن الخارقة:

لا شك أن هناك علاقة وطيدة وعروة وثقى بين السنن الجارية والسنن الخارقة فإن السنن الجارية والسنن الخارقة يخرجان من مشكاة واحدة ومصدر الجميع الله - سبحانه وتعالى - وما هذه السنة وتلك إلا أثر الإظهار لأفعال الله تعالى وإذا كانت السنن ا لخارقة تمضى علي غير المألوف للناس فإن السنن الجارية تمضى على ما يألفون ويعرفون، لذلك تعبدهم الله تعالى بالتعامل مع هذه السنن وهم يأثمون إذا قصروا فى التعامل أو تركوها دون استفادة منها فالمسلم المعاصر لا يعيش الآية فى زمن المعجزات وإنما يعيش فى زمن السنن الجارية التى لا تتوقف ولا تتأجل وهو مطالب شرعًا بالتعامل مع هذه السنن الربانية ليثير الأرض ويعمرها ويحيى الزرع والضرع ويكون بحق خليفة الله تعالى فى أرضه فإن خيرات الله فى الأصل للمؤمن ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾[١] ولعل حديثنا يأتى عن هذا الملمح فى جانب منهج التعامل مع السنة الربانية بإذن الله تعالى.

العلاقة بين السنن الربانية الجارية والإرادة الإلهية:

ولا يظن ظان أن السنن الجارية لأنها تجرى بثبات واطراد أنها تجرى

---

(١) الأعراف: ٣٢.

من ذاتها أو أن فعلها فعل ذاتى فهذا فهم غير صحيح لأن السنن الجارية رغم صفاتها هذه إلا أنها فى النهاية مربوبة لله تعالى والمسلم مدرك لأن شيئًا لا يقع فى الكون إلا بقدر الله تعالى (والحوادث كبيرها وصغيرها لا يمكن أن يحدث إلا بأمر الخلق المباشر من إرادة الله تعالى فلا ينساق فى العقل أن الحادثة تحدث بفعل الأسباب أو النواميس ثم بفعله الإرادة الإلهية لأن الناموس لا يملك وحدة قدرة الانطباق والتوافق التى يسبب بها ألف حادث على نسق واحد ولابد له من القدرة التى يتابع بها هذا التسبب مرة مرة وحادثا حادثا بلا فرق هنا بين الجملة والتفصيل فلا فرق هنا بين الحادث الذى يقع مرة واحدة والحادث الذى يقع ملايين المرات فكلها تتوقف فى بادىء الأمر على إرادة الخلق والإنشاء[1] .

● ● ●

---

(١) انظر الفلسفة القرآنية : ص١٧ ، بتصرف يسير.

المبحث الثالث

صيغ ورود السنن فى القرآن الكريم

وردت لفظة سنة وسنن فى القرآن الكريم ثمانى عشرة مرة فى عشر سور وقد جاءت على الصور الآتية:

أولاً: جاءت مفردة سنة وأقصد بالإفراد ما يقابل الجمع وذلك فى الآيات التالية:

١ـ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

٢ـ ﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٣].

٣ـ ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً﴾ [الكهف: ٥٥].

٤ـ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً * اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر: ٤٢ ـ ٤٣].

٥ـ ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٧].

٦ـ ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً﴾ [الأحزاب: ٣٨].

٧- ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٥].

ووردت مجموعة جمعا نحويا فى:

١- ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

٢- ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء: ٢٦].

ثانيا: وجاءت لفظة سنة موجدة أو غير مضافة فى الآيات التالية:

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ ووردت مضافة فى باقى الآيات الكريمة وإضافتها جاءت على صور:

الصورة الأولى: وردت فيها مضافة إلى الذين من قبلنا ﴿ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ ﴿ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ﴾ ﴿ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ ﴾ ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ﴾ ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ ﴾.

وهذا تصوير لورود كلمة سنة فى القرآن الكريم[١].

---

(١) انظر: مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، السنة الثانية عشرة العدد: ٣١، ذو القعدة، ١٤١٧هـ إبريل ١٩٩٧، ص٣٢، ٥٢.

م	كلمة سنة في آياتها	رقم الآية	اسم السورة	مكان نزولها	ترتيب النزول	ترتيب المصحف
١	﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ﴾ ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾	٤٣	فاطر	مكية	٤٣	٣٥
٢	﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾	٧٧	الإسراء	مكية	٥٠	١٧
٣	﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾	١٣	الحجر	مكية	٥٤	١٥
٤	﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾	٨٥	غافر	مكية	٦٠	٤٠
٥	﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾	٥٥	الكهف	مكية	٦٩	١٨
٦	﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾	٣٨	الأنفال	مدنية	٢	٣٨

م	كلمة سنة في آيتها	رقم الآية	اسم السورة	مكان نزولها	ترتيب النزول	ترتيب المصحف
٧	﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾	١٣٧	آل عمران	مدنية	٣	٣
٨	﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ...﴾ ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾	٦٢	الأحزاب	مدنية	٤	٣
٩	﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾	٢٦	النساء	مدنية	٦	٤
١٠	﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾	٢٣	الفتح	مدنية	٢٥	٤٨

وهذه خلاصة لأقوال المفسرين
فى مدلول كلمة السنة فى القرآن الكريم

نص الآية - وإسنادها	موجز أقوال المفسرين فى معناها
١- ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران: ١٣٧]	أ- ما جرى على المسلمين فى أحد جرى مثله على الأمم السابقة. ب- ما سنه الله فى الأمم من وقائع.
٢- ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٣٨]	أ- طرائقهم الحميدة، واتباعهم شرائع الله التى يحبها ويرضاها. ب- طرائقهم- لتقتدوا بهم.
٣- ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨]	أ- ما أحل بقريش يوم بدر، وبمن سنبقها من الأمم. ب- بما مضى فى الأمم السابقة من عذاب من قتل الأنبياء وتصميم على الكفر.
٤- ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٣]	مضمون الأقوال الواردة فى معنى الآية (٣٨) الأنفال.
٥- ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥]	مضمون الأقوال الواردة فى معنى الآية (٣٨) الأنفال.
٦- ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ [فاطر: ٤٤]	مضمون الأقوال الواردة فى معنى الآية (٣٨) الأنفال.

٧ـ ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ [الإسراء:٧٧]	أ ـ هكذا عادتنا فى الذين كفروا برسلهم، وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم: أن يأتيهم العذاب. ب ـ أننا سننا هذه السنة فيمن أرسلنا قبلك: أنهم إذا أخرجوا نبيهم أو قتلوه لم يلبث العذاب أن يحل بهم.
٨ـ ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب:٣٨]	أ ـ هذا حكم الله ـ تعالى ـ له للأنبياء قبله، لم يكن يزمرهم بشيء وعليهم فى ذلك حرج. ب ـ هذا هو السنن الأقدم فى الأنبياء والأمم الماضية: أن ينالوا ما أحله الله لهم.
٩ـ ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر:٨٥]	أ ـ هذا حكم الله فى جميع من تاب بعد معاينة العذاب: أنه لا يقبل منه. ب ـ إن الله سن هذه السنة فى الأمم كلها: أنه لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب.
١٠ـ ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الفتح:٢٣]	أ ـ هذه سنة الله وعادته فى خلقه: أنه ما تقابل الكفر والإيمان فى موطن فيصل، إلا نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل. ب ـ من نصر أوليائه على أعدائه.

خلاصة واستنتاج:

بالنظر فى هذه الآيات الكريمة فى هذه الجداول السابقة نستطيع أن نصل إلى الآتى:

أولاً: أن لفظ السنة ورد مفردًا ومجموعًا.

ثانيًا: أن لفظ السنة ورد فى السور المكية والسور المدنية على حد سواء.

ثالثًا: أن لفظ السنن لم يكن تعقيبا على موقف واحد أو حدث معين فى السورة القرآنية ثم تأتى لفظة السنة بعد ذلك بل كانت تأتى لفظة السنة بعد ورود حشد كبير من السنن والنواميس والقوانين الماضية وغالبًا ما يعقب ذلك جمع السنة كقوله تعالى فى سورة آل عمران ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ .

رابعًا: أن كلمة سنة المضافة إلى المرسلين أو الذين خلوا من قبلكم أحيانا تأتى مضمومة التاء (سنة) وأحيانًا مفتوحة التاء (سنت).

خامسًا: أن السنة عندما كانت ترد مضافة إلى الأمم التى قد خلت من قبل ﴿**وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ فإنه قد يراد من السنة ما شرعه الله لمن قبلنا من هذه الأمم الماضية أو الطرق الحميدة والعادات الرشيدة والكيفية التى حققوا بها أقوال وتوجيهات أنبيائهم.

وعندما كانت تضاف إلى ﴿**مَن قَدْ أَرْسَلْنَا**﴾ فإنها تكون بمعنى

الشرع والمنهاج الذى سنه الله لهؤلاء الأنبياء أو أن هذه طريقة الأنبياء وعادتهم فى تناول ما أحله الله لهم.

وعندما كانت تأتى مضافة إلى الله تعالى فإنها تكون بمعنى أحكامه ووقائعه وأحداثه التى جرت على المخالفين لأمره والناكثين لعهده والمتنكرين طريقه المستقيم.

• • •

المبحث الرابع

موارد السنن الربانية

القرآن الكريم دستور البشرية ومنهاج حياتها جعله الله تعالى آخر كلماته إلى أهل الأرض تجمع فيه من الهدى والرشاد ما جعل الجيل السابق يقول لو ضاع منى عقال بعيرى لوجدته فى القرآن.

إن القرآن الكريم ليس كتاب منطق ولا فلسفة بمعناها المعروف إلا أنه سلك مع المخاطب لإقناعه وإرشاده والأخذ بيده إلى طريق الله المستقيم كل أسلوب ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[1].

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2].

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[3]

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[4] حتى عُرف عن منهج القرآن الكريم فى الإقناع أنه للعرض لا للفرض وللتعامل مع العقل لا لإكراه العقل على غير ما يريد، وليس أدل على ذلك من تكرار لفظ اللب، والعقل والفكر، والنهى والذكر والعلم ومشتقاتها فى القرآن الكريم عشرات المرات.

---

(١) سبأ: ٤٦.
(٢) البقرة: ٢٥٦.
(٣) الإنسان: ٢.
(٤) البلد: ١٠.

بل إن الأمر أبعد من ذلك وأدق لقد جعل الإسلام (والقرآن مصدره الأول) العقل مناط التكليف ومرتكز الأمر والنهى فإذا زال العقل سقط التكليف حتى كتب علماء الأصول باباً طويل الذيول والأكمام فى هذا المقصد، سموه (عوارض الأهليه أى الأشياء التى تعرض للمكلف فتزيل أهليته للتكليف).

ومن أول هذه العوارض زوال العقل.

ومن الأساليب الإقناعية التى استخدمها القرآن الكريم الإرشاد إلى مصارع الغابرين وذكر الوقائع التى جرت عليهم والأحداث التى حلت بهم من يؤس ونعم وخير وشر فكثر فى القرآن الكريم الأمر بالسير فى الأرض والاعتبار بمصارع الغابرين وأحوال الماضين.

ونستطيع أن نقول إن موارد السنن الربانية فى القرآن الكريم تكمن فى المظاهر الآتية:

أولاً: القصص القرآنى:

والقصص القرآنى أحد الأساليب والوسائل التى استخدمها القرآن الكريم لنقل العظة والعبرة من الماضى السحيق إلى الحاضر المعيش وله أهداف سامية، وفوائد عالية رائعة، وهو لون من ألوان اختزال الخبرة التى حدثت لأقوام مضوا إلى أناس أخرين حتى خوطبوا هذا الخطاب لينتفعوا ويعوا ويعيشوا على فوائد هذا الذى حدث لمن قبلهم وقد ورد فى القرآن الكريم جانب ليس باليسير من القصص وهو أحد الأحرف السبعة التى نزل عليها القرآن الكريم على رأى بعضهم.

وللقصة فى القرآن أثر أى أثر فى تثبيت المعنى وتجسيد الصورة وإظهار المراد والإرشاد إلى مواطن العظة والعبرة، وهى تختلف فى القرآن الكريم عنها فى حياة الأدباء والروائيين فالقصة فى القرآن قصة حقيقية واقعية وإن لم تكن تعنى من التاريخ بالجنب الذى يجعلها تاريخية صرفة ومن أبرز أهداف القصة فى القرآن الكريم.

«بيان أن دعوة الرسول ﷺ متفقة فى أصولها مع دعوة من سبقه من الرسل وتثبيت فؤادا النبى ﷺ وتقوية عزيمته فى المعنى إلى الدعوة رغم ما يلاقيه من أذى واضطهاد فما يقال له إلا ما قد قيل للرسل من قبله وإن يكذبوه فقد كذبت رسل من قبله وإن يؤذوه فقد صبر الرسل من قبله على ما كذبوا وأوذووا حتى أتاهم نصر الله تعالى ولا مبدل لكلمات الله كما أن من فوائدها تثبيت فؤاد المسلمين المؤمنين وغرس الثقة فى نصر الله تعالى فى نفوسهم وتسليتهم عما أصابهم بما آلت إليه حال المؤمنين السابقين وحال أعدائهم الكافرين، وإظهار العظة والعبرة لكل من المؤمنين والكافرين على حد سواء»[1].

وإن المساحة التى شغلتها القصة القرآنية من كتاب الله تعالى كانت مساحة واسعة ما نظن أن موضوعا آخر كان له ما كان للقصة من نصيب فالقصص القرآنى لا يقل الحيز الذى شغله من كتاب الله تعالى عن الربع إن لم يزد وستبقى القصة القرآنية الشعلة التى تضىء لهذا الإنسان لتصل حاضره بماضيه وستبقى النعمة الربانية التى تشرف بها

---

(١) انظر فى ذلك الآلىء الحسان فى علوم القرآن: ص٢٦٩، وما بعدها بدون للأستاذ الدكتور، موسى شاهين لاشين بتصرف واختصار، وانظر كذلك فى هذا المعنى مباحث فى علوم القرآن: ص٣٠٢، مكتبة وهبة للشيخ مناع القطان.

النفس وتعم القلب وستبقى الوثيقة الوحيدة الصادقة الخالدة التى يطمئن الإنسان لمصداقيتها[1].

من هنا كان الجانب القصصى أغزر الجوانب فى القرآن الكريم عناية برصد السنن الماضية والنواميس السارية فى اللاحقين كما سرت فى السابقين.

ولقد توفر للقصص القرآنى ما يجعله يمضى فى نفس الخط الذى يمضى فيه قانون الله تعالى فى السنن فالناظر للقصة فى القرآن يجد أنها تأتى عارية عن المثبتات إن صح التعبير التى جعلها خاصة بزمان معين أو مكان محدد أو أفراد مخصوصين.

فإنها لا تتعرض حتى لذكر العلامات الظاهرة التى تجعل القصة قصرا على صاحبها بل يتعدى مفعولها وفائدتها إلى كل من انطبقت عليهم صفات صاحب القصة.

أضف إلى ذلك أن كل قصة ترد فى القرآن الكريم تعقب بآية أو آيات قليلات فيها خلاصة القصة وتسرية معانيها وفوائدها إلى الناس من بعد.

وقصة يوسف عليه السلام على طولها وعرضها تختم بقوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2]

---

(١) انظر القصص القرآن إيحاؤه ونفحاته: ١٠، ١١، بتصرف واختيار ط دار الفرقان، ط الثانية ١٤١٣هـ ١٩٩٢م دكتور فضل حسن عباس.

(٢) يوسف: ١١١.

وكل موقف من مواقف القصة يعقبه تعقيب سريع كقوله ـ تعالى ـ عقب الحديث عن التقاط يوسف وأخذ السيارة له ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[1] فقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ كأنها قانون مطرد وسنة عامة بعد الحديث عن جانب من جوانب قصة يوسف ـ عليه السلام ـ، وكقوله تعالى فى السورة الكريمة نفسها بعد الحديث عن نجاة يوسف من شرك امرأة العزيز ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾[2] بما يشبه أن يكون قاعدة عامة ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾.

وكذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[3]. وذلك بعد الحوار الذى دار بين يوسف عليه السلام وإخوته وإظهار أمره عليهم وانتصار الحق على الباطل.

وإذا انتقلنا إلى مثل آخر نجد قصة قارون تختم بقوله تعالى ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[4]. وذلك بعد القصة التى حوت حلقات من الصراع بين الحق والباطل وحوارات دائرة مائرة بين الذين يريدون الحياة الدنيا والذين أوتوا العلم إلى غير ذلك وهكذا كل قصة من القصص القرآنى تمضى على هذا الطريق وتنسج على نفس المنوال.

---

(١) يوسف: ٢١.
(٢) يوسف: ٥٢.
(٣) يوسف: ٩٠.
(٤) القصص: ٨٣.

« ذلك أن أحداث التاريخ تتكرر وتتشابه إلى حد كبير لأن وراءها سننًا ثابتة تحركها وتكيفها ولهذا قال الغربيون التاريخ يعيد نفسه وعبر العرب عن هذا المعنى بقولهم ما أشبه الليل بالبارحة وأفصح عنها القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾[1]، وقد أشار إلى تشابه المواقف والأقوال والأعمال نتيجة لتشابه الأفكار والتصورات التي تصدر عنها وفي هذا جاء قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[2] وقال عن مشركي مكة ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾[3]،[4].

ولذلك فإن القرآن الكريم يكثر في قصصه الأمر بالعظة والاعتبار والسير والنظر وإعطاء النظير حكم نظيره ذلك لأنه يحدث للاحق ما حدث للسابق في عموم واطراد.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾[5] ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[6].

وقوله تعالى بعد الحدث عن عدد من صور الصراع بين الحق والباطل

---

(٥) آل عمران: ١٤٠. (٢) البقرة: ١١٨.

(٣) الذاريات: ٥٢، ٥٣.

(٤) مدخل إلى دراسة السنن الإلهية في القرآن الكريم: ص٥١، مرجع سابق.

(٥) الأعراف: ٨٦ لم توجد في الأعراف. (٦) هود: ٤٩.

وذكر مجموعة من أحداث الأمم الماضية وفعل الله تعالى بهم ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾[1].

وفى التعقيب على موقف بنى النضير فى سورة الحشر يقول تعالى ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[2].

من هنا أخذ علماء الأصول من هذه الآية وأخواتها دليلا على مشروعية القياس وإعطاء النظير حكم نظيره إلى غير ذلك من الآيات الكثير فى القرآن الكريم التى تعقب على قصة أو حادثة بالأمر بالنظر والاعتبار.

ثانيا: المثل القرآنى:

والمثل والأمثال فى القرآن إحدى الأساليب الإقناعية التى استخدمها القرآن فى عرض قضيته على الناس وطرح فكرته على البشر.

والمثل أيضًا كالقصة فى تأثيرها فى نفس السامع والقارىء بل قد يكون وقعها أسرع ونمطها أمضى لما فى التركيبة اللغوية للمثل من سهولة فى الصياغة وقوة فى الأداء واختزال فى المعنى (وفى الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها، وانقيادها لما ضرب لها من الحق أمر لا

---

(١) هود: ١٠٠-١٠٣.

(٢) الحشر: ٢.

يجحده احد ولا ينكره وكلما ظهرت لها الأمثال ازداد المعنى ظهورا ووضوحا فالأمثال شواهد المعنى المراد ومزكية له)[١] .

فالمثل لون من ألوان التعبير يختص بسمات تجعله فى هذه المنزلة العالية من التأثير فى النفس وإصابة غرضه ومبتغاه (فهى تجمع إلى إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية فهو فى نهاية البلاغة)[٢] من تدبير الله لعباده أن ضرب لهم الأمثال من أنفسهم فخاطبهم بها ليعقلوا ويدركوا ما غاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهره وفمن عقل الأمثال سماه الله فى كتابه (عالم)[٣] . وذكر رائد البلاغة عبد القاهر الجرجانى أن التمثيل (إذا جاء فى أعقاب المعنى كساها أبهة واكسبها منقبة ورفع من أقدارها وشب من نارها وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها واستثار بها من أقصى البلاد والأفئدة صبابة وكلف وقر الطباع على أن تعطيها محبة وشفافا فإن كان مدحا كان مدحا أبهى وأفخم وأنبل فى النفوس وأعظم وأهز للعطف وأسرع للإلف وأجلب للفرح وأغلب على الممتدح وأوجب شفاعة للمادح وأقضى له بغر المواهب والمنائح وأسير على الأنس وأذكر وأدلى بأن تعلقه ا لقلوب وأجدر وإن كان ذما كان مسه أوجع وميسه ألذع ووقعه أشد وحده أحد وإن كان حجاجا كان برهانه أنور وملكاته أقهر وبيانه أبهر وإن كان افتخارا كان شأوه أبعد وشرفه أجد ولسانه ألد .

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين : ١ / ٢٣٩ .   (٢) صجع الامثال المقدمة.

(٣) الأمثال من الكتاب والسنة للحكيم الترمذى : ص٢ ، ج١ ،دار التراث د . محمد على البيجاوى .

وإن كان اعتذارا كان إلى القبول أقرب وللقلوب أخلب وللسخائم أسل ولضرب الغضب أقل وفى عقد العقود أنفث وعلى حسن الرجوع أبعث..

وإن كان وعظا كان أشفى للصدر وأدعى للفكر وأبلغ فى التنبيه والزجر وأجدر بأن يجلى الغياية ويبصر الغاية ويبرىء العليل ويشفى الضليل[1].

وقد حرصت على ذكر كلام إمام البلاغة وأسرارها عبد القاهر الجرجانى لروعة تصويره لفوائد المثل التى لا تحصى وثماره التى لا تنتهى.

وقد حرص القرآن الكريم على تصوير معانيه وعرض قضاياه بأقرب صورة وأوضح سبيل فجاءت أمثاله متكاثرة بأنواعها المختلفة وصورها المتعددة وتضمنت هذه الأمثال بتركيبتها المعروفة عدداً من السنن الثابتة، والقوانين الماضية حتى لا يكاد يخلو مَثَلٌ من أمثال القرآن الكريم من الإشارة إلى سنة أو التعقيب على قانون ولم لا وأصل وظيفة المثل فى مضربه تصوير حالة حاضرة بحالة ماضية وإعطاء اللاحقة حكم السابقة لتشابه أطرافها واتحاد أحوالها، وكثر فى القرآن ضرب الأمثال وكثر ربطها بالعظة والاعتبار فقد ورد المثل فى القرآن الكريم ما يزيد على مائة مرة وهذا بلفظ المثل صراحة عدا الصور الأخرى التى ورد عليها المثل فى القرآن الكريم ودعا القرآن الكريم إلى الاعتبار بالأمثال

---

(١) أسرار البلاغة: ص٨٤، ٨٨، ط محمد على صبيح، ط السادسة ١٣٧٩هـ ١٩٥٩م للإمام عبد القاهرة الجرجانى، بتعليق السيد رشيد رضا.

فقال تعالى ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[1] ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2] ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾[3].

ومن الناحية التطبيقية كثر ورود الأمثال فى القرآن الكريم وكثر كذلك ربطها بالعبرة والعظة، ومن ذلك قوله تعالى فى رصد سنة شكر النعمة وكفرها ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[4].

وفى موطن الصراع بين الحق والباطل يقول تعالى ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾[5] وهى رصد لحلقة من حلقات الصراع بين الحق والباطل يجعلها القرآن الكريم فى صورة ضرب المثل وتختم الآيات الكريمة بقوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ * وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾[6]، وهذه سنة الله تعالى فى إهلاك الظالمين إلى غير ذلك من الآيات التى تصور

---

(١) إبراهيم: ٢٥.
(٢) الحشر: ٢١.
(٣) العنكبوت: ٤٣.
(٤) النحل: ١١٢ - ١١٤.
(٥) يس: ١٣ - ٢٩.
(٦) يس: ٣١ - ٣٢.

سنة الله - تعالى - فى الأمم والأفراد فى صورة المثل أو يأتى المثل فيها ممهداً لسنة من السنن الربانية.

من هنا يمكننا أن نقول: إن ضرب المثل فى القرآن الكريم مورد من موارد السنن الربانية موطن من مواطنه.

ثالثاً: الآيات التى ورد فيها الأمر بالسير فى الأرض للنظر والاعتبار:

والأمر بالسير فى الأرض والدعوة إليه ورد فى القرآن الكريم مرات متعددة تزيد على أربع عشرة مرة، فى صورة تخصيص على السير وإنكار لعدمه فى ست مرات منها قوله تعالى ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾[1] فكان الدافع إلى السير النظر والتعقل ومن معانى العقل الربط أى ربط المعنى والعظة الماضية والانتفاع بها فى الأوقات الحضارة ومن هنا نعى الله تعالى على الأبصار التى لا تعى وأثبت أنها قد ترى لكنها لا تعقل وقد تكون مفتوحة وترى لكنها لا تنتفع ﴿**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾.

وتأتى بعد هذه الآية الكريمة سنة من سنن الله تعالى فى الخلق، هى سنة عدم إخلاف الله وعده وواردة بعد الحديث عن تكذيب قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وقوم موسى والقرى التى أهلكت وهى ظالمة.

---

(١) الحج: ٤٦.

وكذلك قوله تعالى فى سورة الروم ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[١].

فالآية الكريمة تغرى الناس بالسير فى الأرض والنظر فى عاقبة الذين من قبلهم وما كان لهم من قوة هى أشد من قوتهم وآثارهم التى عمروا بها الأرض وقد جاءتهم الرسل بالبينات فما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم بتنكبهم الطريق المستقيم والصراط السوى والآية الكريمة وارده بعد سنة من سنن الله تعالى فى الخلق وهى سنة النصر فقد تحدث صدر السورة عن غلب الروم فى أدنى الأرض وأنهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين وذلك لأن الأمر كله لله من قبل ومن بعد وهو الذى ينصر من يشاء فهو العزيز الذى لا يغالب الرحيم بنصر الحق على الباطل إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى تحث على السير فى الأرض والتفكر فيها وورد الأمر بالسير صراحة فى ست آيات كريمة وكذلك عقب التعليق على الغابرين ومهالك الظالمين والتعقيب على سنن الله الماضية التى تطرد فى الأمم والأفراد دون مجاملة ولا محاباة.

فمثلاً فى سورة النحل يقول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾[٢]

---

(١) الروم: ٩.

(٢) النحل: ٣٦، ٣٧.

والآية الكريمة واردت عقب الحديث عن كلام المشركين بأنه لو شاء الله ما عبدوا من دونه من شيء هم ولا آباءهم ولا حرَّموا من دونه من شيء وأتت الآية التالية لتأمر بالسير للتفكر في آثار الذاهبين هؤلاء الذين لم يسمعوا إلا لقول الآباء والأجداد دون تفكر في المراد فهمه ويتبع ذلك، حديث عن سنة الله تعالى في الهداية والإضلال.

وإذا انتقلنا إلى سورة النمل نجد قوله تعالى ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[1] ورد الأمر بالسير في الآية الكريمة عقب عدد من القصص لأمم مضت كقوم صالح وسليمان وملكة سبأ وداود وقوم لوط وتوسطت آية الأمر بالسير عدداً من السنن الإلهية كسنة الله في المكر والماكرين ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2].

وسنة الهداية ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾[3].

وإذا وصلنا إلى سورة العنكبوت وجدنا قوله تعالى ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[4]، وذلك وارد عقب سنة الله في الفتن والابتلاء.

---

(١) النمل: ٦٩.
(٢) النمل: ٥٠-٥١.
(٣) النمل: ٨١.
(٤) العنكبوت: ٢٠.

﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾[1].

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى تدعو إلى السير وتأمر به بما يمكننا معه أن نقول إن الآيات التى أمرت بالسير فى الأرض والتفكر فى أحوال أهلها، والنظر فى أمورها مورد من موارد السنن الربانية فى القرآن الكريم.

• • •

(١) الروم: ٢ - ٣(لم توجد فى الروم).

المبحث الخامس

صور التعبير عن السنن الربانية فى القرآن الكريم

فى مباحث سابقة تحدثنا عن صيغ ورود لفظ السنن فى القرآن الكريم وموارد ورودها ومواطن ظهورها فى القرآن الكريم من القصص والأمثال ومواطن الأمر بالسير فى الأرض والنظر والتفكر وفى هذا المبحث نتناول صور التعبير عن السنن الربانية فى القرآن الكريم وهذه الصور يمكن رصدها كالتالى :

الصورة الأولى:

أن ترد لفظ السنة صراحة فى الآية الكريمة وقد سبق أن عرفنا أن لفظ السنة ورد فى القرآن الكريم فى ثمانى عشرة مرة فى إحدى عشرة آية بصيغ متعددة سبق أن عرفناها .

الصورة الثانية:

أن ترد السنة فى القرآن الكريم فى صورة يرتبط آخرها بأولها ارتباط الشرط بالمشروط، أو العلة بالمعلول والسبب بالمسبب وقد كثر ذلك فى القرآن الكريم قوله تعالى ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1] وذلك فى سنة النصر، وقوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُم

---

(١) محمد : ٧.

أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾(١) في قانون الفتح في الرزق ونحوه ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾(٣) وذلك في سنة شكر النعمة وكفرها.

وكقوله تعالى ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾(٣) وذلك في سنة الله تعالى في الإهلاك وقوله ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾(٤) في سنة التفاوت بين الناس وقوله تعالى ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾(٥) في سنة الله تعالى في الترف والمترفين.

وقوله تعالى ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾(٦) في سنة الهداية والإضلال وقوله تعالى ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾(٧).

---

(١) المائدة: ٦٥ - ٦٦.
(٢) الأعراف: ٩٦.
(٣) إبراهيم: ٧.
(٤) الأنعام: ١٦٠.
(٥) الإسراء: ١٦.
(٦) طه: ١٢٣ - ١٢٤.
(٧) البقرة: ٢٥١.

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى ترد فى هذه الصورة ارتباط الشرط بالمشروط أو العلة بالمعلول والسبب والمسبب.

الصورة الثالثة:

ورود السنة مرتبة على فعل البشر وسلوكهم ومرتبطة به ارتباط الحال بصاحبه والصفة بالموصوف والغاية بالمغيا فمن وروده بصورة الحال قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾[1]، وقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾[2] ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾[3]، ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[4].

ومن ورود السنة مرتبطة بالسلوك البشرى ارتباط الصفة بالموصوف قوله تعالى ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾[5] وقوله ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾[6] ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾[7] ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾[8] إلى غير ذلك.

---

(١) هود: ١١٧.
(٢) القصص: ٥٩.
(٣) الأنعام: ١٣١.
(٤) الأنفال: ٣٣.
(٥) القصص: ٥٨.
(٦) الأنبياء: ١١.
(٧) الحج: ٤٥.
(٨) محمد: ١٣.

وأما ربط السنة بفعل البشر ارتباط الغاية بالمغيا فورد فى مثل قول الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1] ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[2] ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[3].

وورود لفظة كذلك فى سياق قصة أو تعقيب عليها أو فى الحديث عن مشابهة تجمع العقل الأول الذى وردت فيه السنة مع الفعل الثانى الذى تشابهت فيه الشروط وانتفت الموانع ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾[4] وكقوله تعالى فى نهاية قصة أصحاب الجنة ﴿ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[5].

• • •

---

(١) الرعد: ١١.
(٢) الإسراء: ١٥.
(٣) الأنفال: ٥٣.
(٤) يونس: ١٣.
(٥) القلم: ٣٣.

الفصل الثالث

العلاقة بين السنن الكونية والسنن الربانية

المبحث الأول

خصائص السنن الكونية

السنن الكونية أثر من آثار إظهار أفعال الله تعالى فى خلقه وهى اللون الآخر والجانب الثانى من جوانب إبراز قدرة الله تعالى وعلمه وعزته وحكمته وما اتصف به عز وجل من صفات قدسية كاملة.

وقد اتسمت هذه السنن التى نقصد بها الظواهر الكونية ومفردات العالم الذى نعيش فيه وننعم بخيره اتسمت بصفات متعددة من أبرزها:

١. التوازن والنظام:

فالكون يشهد بكل أجزائه على أن النظام أساس الكون من أصغر ذرة إلى كبر مجرة وهذا النظام والتوازن دلالة من دلالات الكون ومظاهره على الله تعالى فلقد أثبت العلم الحديث أن نظام تركيب الذرة هو نظام تأليف المجرة مما يشعر بأن صانع الأولى والثانية واحد وهو الله تعالى، ولا يتوقف هذا التوازن المطلق والنظام البديع عند جانب من جوانب الكون بل يشمل الجميع.

« فلقد توصل علماء دراسة الذرة إلى ما حير الألباب وأذهل العقول بتكوين هذا الكون والنظام الذى يحويه... والقدرة التى يتحدث عنها إن نواة الذرة تحتوى على ٩٩,٩ من الوزن الذرى وقد وجد

كذلك أن الشمس تحوى ٩٩,٩ من وزن المجموعة الشمسية فعرفوا أن النواة في الذرة هي بمثابة الشمس في المجموعة الشمسية ولوحظ كذلك أنه كما تدور الكواكب حول الشمس تدور الألكترونات حول نواة الذرة بل وجد ما هو أدق من ذلك فالمسافة بين الأكترونات بالنسبة لقطر الذرة معادلة لنفس المسافة بين الكواكب وقطر مجموعة الشمس.

وقوى التجاذب الناتجة من كهرباء الذرة بين البروتون الموجب والإلكترون السالب هذه القوة التي تجعل الألكترونات تسبح حول النواة تتبع نفس المعادلات الحسابية بالضبط لقوى الجاذبية بين الشمس وكواكبها حتى قوى التجاذب التي تجعل الإلكترونات تسبح في مدارات دائرية وبيضاوية حول نواة الذرة هي نفسها التي تجعل الكواكب تأخذ نفس المدارات في المجموعة الشمسية.

والقوة الهدامة التي تنتج من تحطيم الذرة والتي تمثلت في القنابل المدمرة التي عرفها البشر موجودة في الشمس بقدر يوازى ما تبلغه الشمس من أضعاف الذرة[1].

وهذا التوازن والنظام المطرد بين مظاهر الكون لا يتوقف عند حد ولا ينتهي عند نوع دون نوع من جوانب الكون وهذا سر لفت القرآن الكريم أنظار الناس إلى السماء وما فيها والأرض وما عليها وكثر ربط هذه المظاهرة الواضحة بالسلوك البشرى والفعل الإنسانى، ﴿وفي كل

---

(١) انظر القرآن والعلم الحديث: ص١٥٦، ١٥٧، دار الشعب ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م للأستاذ عبد الرزاق نوفل بتصرف يسير وانظر خلق الإنسان بين العلم والقرآن جـ٢، ص٣٠٩، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦ للدكتور عبد الفتح طيره. وانظر أيضًا القرآن والعلم الحديث ص٢٢٧، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١م. د/ منصور محمد حسب النبي.

يوم يكشف العلماء ما يجعلهم يزدادون إيمانًا بالخالق الذى وضع الميزان لكل ما خلق وفى الحياة يستطيع أى مشاهد أن يلمس الاتزان الذى يظهر جليا فيما حوله. إن زوج الذباب العادى ينتج خمسا وعشرين مليونا من الذباب فى العام فكيف تكون الحال لو عاش الذباب أكثر مما يعيش ولو عمل الإنسان أو النبات أو الحيوان ولم يجر عليه ما يجرى على الأحياء من الموت فكيف تكون الحياة[1]. وإذا انتقلنا من جوانب الكون المشاهدة إلى خليفة الله فى الكون إلى الإنسان نفسه نجد أنه يجرى عليه هذا الناموس المنضبط والقانون المحكم من قوانين الله فى كونه فى نظام واتزان «لقد أثبت العلم الحديث» أن كل فرد من الأفراد يأخذ نصف صفاته من أبيه والنصف الآخر من أمه وكل من هذين يأخذ نصف صفاته من كل من أبويه بالتساوى إذ قد وجد أن كل نواة خلية بشرية تحتوى على ٤٨ من الكرموزومات فيما عدا خلايا البويضة والنطفة فإنها تحتوى على نصف هذا العدد ويتم العدد بتزاوجهما وهذه الكرموزومات تحوى الجراثيم المورقة التى تعد أصل وراثة الإنسان للصفات ولما كان كل من الأب والأم قد أسهم بعدد مساو من الجراثيم فإن الأب والأم يستاويان لذلك فى توريث الصفات للإنسان، ومن عجب أن القرآن الكريم قد قدر هذه النظرية قبل العلم بعشرات المئات من السنين إذ يقول فى سورة مريم ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾[2] أى أن مريم لا يمكن أن تكون خاطئة أو

---

(١) السابق: ص١٥٨ بتصرف يسير.

(٢) مريم: ٢٨.

آثمة إذ لم تورث هذا الخطأ من الأب أو الأم أى أن الصفات تورث من الأب والأم[1].

من هنا نستطيع أن نقول إن النظام والتوازن يمضى فى كل مظاهر الكون وجوانبه من أصغر الأشياء إلى أكبرها وهذا التوازن ينسحب بطريقة مطردة على العلاقة بين الكائنات بعضها ببعض ونلحظ فى هذا الإنسجام السارى بين أجزاء الكون بما فيه ومن فيه روح العناية التى لا تغفل عن حفظ هذا الكون ورعايته.

وهذا التوازن بين عناصر الكون وشرائحه هو سنة الله تعالى التى دبر بها الكون وعليها أدار فلك نظامه الإلهى البديع وهذا التوزان هو العدل الذى قامت به السماوات والأرض وهو الحق الذى خلقت به الحياة ومن أبدع ما اعبر به البيان القرآنى عن سنة الله العامة فى الكون ما لقن الله تعالى كليمه موسى عليه السلام فى جواب التعنت الفرعونى إذ يقول حاكيا للسؤال والجواب فى أوجز أسلوب إعجازى ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[2].

والتعبير بـ ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ﴾ بيان لسنته تعالى فى توازن عناصر كل مخلوق توازنا جرى على تقديره منسق محكم والتعبير بقوله (ثم هدى) بيان لسنة الله تعالى فى توازن التمكين الذى أوتيه كل مخلوق فى طرائق عيشه وضوابط حياته[3].

(١) القرآن والعلم الحديث، ص١١٣ بتصرف يسير.

(٢) طه: ٥٠.

(٣) سنن الله فى المجتمع من خلال القرآن ط الدار السعودية ط الثالثة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م للمرحوم الشيخ محمد الصادق عرجون.

وآيات القرآن الكريم توحى بهذا التوازن المطرد والنظام الدقيق الذى ينتظم الأشياء جميعها صغيرها وكبيرها على حد سواء، وتقع بعض التوجيهات القرآنية مرتبطة بهذا التوازن موقع المعلل من التعليل فيترتب على إدراك هذا التوازن إدراك عظمة فاعل هذا التوازن، واقرأ معى إن شئت قوله تعالى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾[1].

إن الثناء على الله تعالى بعد الأمر بتقديس اسمه الذى انبثقت منه سننه الكونية فى تدبير ملكه وتربية خلقه بأنه قدر خلق كل خلق وسواه فى أوضاع عناصره تقديراً متوازنا مع سائر عناصر الكون والحياة بيان لسنة الله تعالى فى نظامه الأبدى للكون والثناى علي الله سبحانه بأنه قدر خلق كل من خلق وسواه فى صورة لا تتكرر وهى فى موضعها من الحياة والكون تؤدى مهمتها التى لا تؤديها صورة أخرى فى مخلوقات الله بيان لسنة التوازن الأبدى فى خلق الله وبيان لارتباط حياة كل مخلوق فى طريقة عيشه بطبيعته وخلقته التى أبدع عليها[2].

النضباط:

وإذا كانت الجوانب الكونية ومظاهر الحياة تمضى بنظام منضبط واتزان ثابت فهى أيضًا تمضى بإحكام وانضباط منقطع النظير هذا الإحكام الذى يقابل الاطراد فى سنن الله فى البشر وإن ظهر ذلك فى

---

(١) الأعلى: ١ ـ ٥.

(٢) سنن الله فى المجتمع من خلال القرآن الكريم ص١٧، ١٨، مرجع سابق.

الجوانب الكونية بصورة مادية صارخة لم يكن في جانب السلوك البشرى واضح النتيجة للعيان على الأقل بهذه الحدة والصرامة ، فالواقع الإنساني ليس منضبطا كواقع المادة فالعنصر الروحي في تكوين الإنسان والإرادة الحراة جعلاً هذا الواقع يتصف بكثير من الخفاء والغموض في العوامل والأسباب التي تنشأ عنها الظواهر السلوكية الأمر الذي يجعله عصيا عن الفهم اليقيني والاطراد الصارم خاصة أن الإنسان هو أداة التحليل ومحله في وقت واحد بينما في إطار المادة والكون فالإنسان هو أداة التحليل أما المحل فآخر منفصل عنه، وهذا لا يعني أن حركة الإنسان ونهوض الحضارات وسقوطها يسير بشكل عشوائي عبثي خالية من كل قانون ثابت بل هي محكومة بقوانين عامة تحكم توجيهاتها ومساراتها العامة(١).

وهذا الإحكام والانضباط الذي يسير في جوانب الكون يتسم بالعموم والشمول فإذا نظرنا إلى نماذج من مظاهر هذا الكون أو بعض العمليات التي تحدث داخل هذه المنظومة الكونية مثل الانصهار الذي تتحول فيه المواد الصلبة إلى حالة سائلة والذوبان الذي تتحول فيه المادة الصلبة إلى جزء من السائل والتجمد الذي تتحول فيه المادة السائلة إلى حالة صلبة والترسيب الذي تتحول فيه المادة الذائبة إلى مادة صلبة والتبخير الذي تتحول فيه السوائل إلى حالة غازية وغير ذلك من العمليات الكثيرة التي تقوم وتتم في هذا الكون المنظم المحكم والمنضبط المتوازن.

---

(١) انظر مراجعات في الفكر والدعوة والحركة للأستاذ عمر عبيد حسن، ص٩، وانظر مدخل إلى دراسة السنن الإلهية ص٤٢، مرجع سابق.

إذا نظرنا إلى هذه العمليات أدركنا تمام الإدراك أن الكون قائم على الإحكام المتقن والانضباط التام وصدق الله تعالى إذ يقول ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾[1].

فلا يمضى ذلك بطريقة عشوائية عبثية ، وإنما يمضى حسب قوانين وأحكام وقواعد تبينها كتب خواص المادة والفيزياء وغيرها مما يؤكد أن الذى قدر هذه التحولات المفيدة فى أوصاف المادة إنما قدر بنظام محكم دقيق يجعل هذه التحولات المفيدة نافعة ضمن خطة عامة حكيمة يسير عليها هذا الكون كما أن هذه القوانين الحكيمة وهذه التحولات المقدرة تشهد أن ربها حكيم عليم خبير بصير[2].

إن هذا الانضباط التام والإحكام المطلق الذى لا يجد الإنسان فى جانب من جوانبه شيئًا من فطور هو ما جعل القرآن الكريم يلفت أنظار الناس إلى جوانب الكون ومظاهره، وجعل الله تعالى هذه الدلالات شواهد صارخة على استحقاقه للتنزه والتقديس ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ * الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[3].

---

(١) يس: ٣٨.

(٢) توحيد الخالق، ص٢٩، ط دار المجتمع للنشر والتوزيع جـ٢، ط الثانية ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، للأستاذ عبد المجيد الزندانى.

(٣) الملك: ١ ـ ٤.

لقد أثبت العلم الحديث أن الأرض التى نعيش عليها تبعد عن الشمس التى تبلغ درجة الحرارة على سطحها ١٢ ألف درجة فهرنهيت بمقدار يبلغ ٩٢ مليون ونصف مليون ميلا وتبعد عن القمر بمقدار ٢٤ ألف ميل وهذه الأبعاد هي التى تكفي لتهيئة البيئة الصالحة للحياة بالصورة التى نعرفها على الأرض إذ لو قربت الأرض عن ذلك لاحترقت الأحياء التى عليها فى التو واللحظة وانعدم منها كل كائن حى على الأرض ولو قرب القمر أو بعد عن ذلك لغمر المد القارات بالماء ولأهلك الجزر الأحياء وليست جاذبيته نفتت الجبال والتلال وتلاشت الحياة.

وتدور الأرض على محورها بسرعة ألف ميل فى الساعة أى ما يعادل مرة كل أربع وعشرين ساعة ولو قل معدل دورانها عن ذلك لطال النهار بما قد يؤثر فى النبات والأحياء صيفا وطال الليل بما قد تتجمد بسببه السوائل شتاء وبذلك تقل مسببات الحياة والتى لو زادت لانعدمت شيئًا فشيئًا[١].

إلى غير ذلك من الظواهر التى إن دلت على شىء فإنما تدل على أن هذا الكون أساسه النظام المطلق والإتقان المتناهي والانضباط والإحكام وفى ذلك كله ﴿ **بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين** ﴾[٢].

ولقد رأيت فى إحدى رحلاتى إلى كندا كيف تؤثر خطوط الطول والعرض فى الوقت فلقد صليت المغرب فى مدينة فرانكفورت بألمانيا

---

(١) انظر الله والعلم الحديث ص٢١ ط دار الشعب بدون تاريخ للأستاذ عبد الرازق نوفل بتصرف يسير.

(٢) آل عمران: ١٨٣. (لم توجد فى آل عمران)

ولما رحلت إلى كالجرى إحدى مدن كندا وجدت أن الشمس ما تزال موجودة وحدثنى بعضهم هناك أن فى أعالى كندا مناطق يطول فيها الليل فى ساعات الشتاء ويقصر النهار بطريقة لا يمكن معها المتعايش مع الحياة وفى الصيف يطول النهار ويقصر الليل بنفس الطريقة فسبحان الخالق الذى غمرت نعمه عباده رغم قلة شكرهم.

وانظر رعاك الله إلى كلام بعض علماء الغرب عن المبدع الأعظم الذى نظم هذا الكون وأتقن صنعه وهو العالم الهندسى كلوم هاناواى[1] ليس العالم من حولنا إلا مجموعة هائلة من التصميم والإبداع والتنظيم وبرغم استقلال بعضها عن بعض فإنها متشابكة متداخلة وكل منها أكثر تعقيداً فى كل ذرة من ذرات تركيبها فى ذلك المخ الإلكترونى الذى صنعته فإن كان هذا الجهاز يحتاج إلى تصميم فلا يتحاج ذلك الجهاز الفسيولوجى الكيموى البيولوجى الذى هو جسمى والذى ليس بدوره إلا ذرة من ذرات هذا الكون اللانهائى فى اتساعه وإبداعه إلى مبدع يبدعه إن التصميم أو النظام أو الترتيب أو سمها ما شئت لا يمكن أن تنشأ إلا بطريقتين طريق المصادفة أو طريق الإبداع والتصميم وكلما كان النظام أكثر تعقيداً بعد احتمال نشأته عن طريق المصادفة ونحن فى خضم هذا اللانهائى لا نستطيع إلا أن نسلم بوجود الله[2].

---

(١) هو مستشار هندسى ومصمم العقل الإلكترونى للجمعية العلمية لدراسة الملاحة الجوية.

(٢) الله يتجلى فى عصر العلم ص١١٣، ط الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية ط الرابعة ١٩٨٦م تحرير جون كلومر مونما ترجمة د/ الدمرداش عبد المجيد سرحان.

والعالم الجيولوجي الغربي (داوسن) يقول إن الإيمان بسنن الله الكونية ضروري بالنسبة للمعنى الفلسفي لصلاة الإنسان ودعائه فلو كان الكون قائما على الفوضى أو لو كان أمرًا حتميا لا سبيل إلى تعديله كما كان هناك مكان لصلاة الإنسان ودعائه أما إذا اعتقد الإنسان أن هذا الكون يقع تحت سيطرة إله مشرع حكيم رحيم لا مجرد مدبر لجهاز آلي فإننا نتقدم إليه بالصلاة والدعاء لا لتغير خطته العظمى وسنته ولكن لكي يدبر بحكمته الواسعة محبته لنا الأقدار بحيث تفي بحاجاتنا[١].

وأرى في هذا الكلام غناء أي غناء عن مزيد من الكلام في إثبات التطابق بين سنن الله في الكون وسننه في سلوك البشر فكل يجري حسب ضبط وإتقان وإحكام « فإذا كان للكون سننه المطردة وقوانينه الثابتة التي تحكم مسيرته وتضبط عوالمه من الذرة إلى المجرة كقوانين الجاذبية والطفو والحرارة والبرودة وغيرها فإن للمجتمعات الإنسانية قوانين عامة كذلك تضبط مسيرتها وتبين عوامل تقديمها وتقهقرها وبقائها وفنائها هذه القوانين تتلخص في أن الله جعل بقاء الأمم ونمائها في التحلي بالفضائل والعفة عن الشهوات والالتزام بتعاليم الأنبياء وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم ولا تتبدل بتبدل الأجيا »[٢].

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص١٠٩ ـ ١١٠.

(٢) مفهوم سنن الله الاجتماعية في القرآن الكريم بحث للدكتور صديق عبد العظيم أبي الحسن ضمن مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية السنة الثانية عشر العدد الحادي والثلاثون ذي القعدة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

وخلاصة القول أن السنن الكونية أو ظواهر الحياة المادية بصرامتها وحدتها تقوم على الاتزان الكامل والإتقان المحكم والنظام والانضباط وفى هذه الصفات ما يتلاقى مع قانون الله تعالى فى الخلق من عموم وشمول واطراد وعدم تبدل أو تحول.

• • •

المبحث الثانى

السنن الكونية والسنن الإلهية

لأهل النظر فى القرآن الكريم والتفكر فى الكون عبارات دالة يحسن بنا أن نقف أمامها وننعم بفيضها من ذلك قولهم لله كتابان مسطور وهو القرآن ومنظور وهو الكون فالكون قرآن منظور والقرآن كون مسطور والقرآن يمثل كلام الخبير والكون يمثل فعل الخبير ولا يخالف كلام الخبير فعله(١).

والمتأمل للكون والقرآن معا يجد هذا التطابق الذى يلفت النظر ويسترعى الذهن الذى عبر عنه القرآن الكريم بقوله ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾(٢).

فالآفاق الواسعة الفسيحة بما تحمل من قوانين ثابتة مطردة وسنن ماضية حاكمة جانب من جوانب الإعجاز الإلهى الجوانب التى من خلالها يصل الناس إلى الله تعالى (والأنفس) بما لها من قوانين ضابطة تمضى عليها لا تشذ عن ضبطها ولا تنفلت عن سياجها جناح آخر لهذا اللون من ألوان الإعجاز.

وأقصد بالسنن الكونية الظواهر الكونية التى أسس عليها الكون من سماوات وأراضى وذرات ومجرات وبحار وبتعبير القرآن المعجز (آفاق).

---

(١) انظر نظم الآلى من حكم الغزالى، جمع وإعداد د. رمضان خميس الغريب.

(٢) فصلت : ٥٣.

وأقصد بالسنن الإلهية (موضوع البحث) النظام الإلهى فى الأفراد والأمم والشعوب والمجتمعات والناظر بين هذين المجالين يجد ارتباطا عجيبا وتناسقا بديعا من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة.

فقوانين الأفاق التى تحكم الكون بظواهره تخضع لثبات واطراد وشمول وحاكمية مهيمنة فالماء يصل إلى الغليان عند درجة مائة ويتجمد عند درجة الصفر وهذا القانون ثابت لا يتغير ولا يتبدل بل يعطى نتيجته لكل من يتعامل معه دون نظر إلى طبيعة من يتعامل معه ذلك لأنه قانون ماضى على الجميع لا يحابى ولا يجامل ولا يستثنى وكما يمضى هذا النظام الإلهى فى جوانب الكون الإعجازية بثبات واطراد وعموم وعدم تبدل أو تحول يمضى أيضا فى جوانب الحكم على أفعال البشر فى الحياة فإن مصدر هذه القوانين الكونية وتلك القوانين الإلهية فى الأمم والأفراد واحد وهو الله سبحانه وتعالى وهناك ارتباط وتآخى بين المجالين المجال الكونى بما فيه من جوانب الإعجاز والنظام والجانب البشرى بما فيه من سلوك البشر وأفعالهم (وسنن الله بصفة عامة سواءا كانت كونية أم بشرية مرتبطة أشد الارتباط فى وحدة نظامية يأخذ بعضها بحجز بعض وتتماسك فى اتساق حتى تكون نظاما كونيا متناسقا أبدع ما يكون التناسق يسير العالم فى ظله بسماواته وأراضيه ومن فيهما وما فيهما وما بين ذلك من خلق لا يعلم عدده ولا حقائقه إلا مقدره وخالقه محكوما بتلك السنن الإلهية التى لا تحيد عن خطها المرسوم فى لوح الأزل وإنما عقول البشر هى التى قد تنحرف عن التناسق الكونى إفراطا أو تفريطا قصوراً عن إدراك التناسق أو جموحا فى ارتياد تلك الوشائج فتتوهم وتتخيل ثم لا تلبث الحقائق

الكونية في سنن الله أن تردها إلى دائرة الحقيقة الكونية الكبرى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(١)،(٢).

ذلك أن الكل أثر فعل الله تعالى وقدرته سواء فى الجانب الكونى أو الجانب البشرى ولقد حرص القرآن الكريم على ترسيخ هذه الفكرة فى أذهان أتباعه كما سنعرف ذلك بجلاء عما قريب حرص على أن يدركوا الترابط الموجود بين قوانين الله تعالي وقانينه فى سلوك البشر فسنته تعالى فى المجتمع جانب من جوانب الفكرة القرآنية التى بثها الله تعالى فى آيات هذا الكتاب المبين نظاما اجتماعيا مترابطا إلى جانب سنن الله العامة فى الكون التى تصور فلسفة القرآن فى فهم الحياة كما تصور حكمته فى نعوت الكمال لله تعالى خالق الحياة وفلسفة القرآن وتجعل من الكون كله حقيقة واحدة طوى فيها خالقها دلائل وجوده وبراهين وحدانيته وآيات قدرته وعلمه وحكمته ووكل إلى العقل البشرى تكليفا وتشريفا الكشف عن هذه الدلائل والبراهين بما أودع فيه من قوة إدراكية غائصة وبما أمده به من عون فى تهديه إليها وهذا المعنى هو خلاصة وعد الله تعالى لهذا العقل بالكشف عن آيات الله فى الكون وصدق الله تعالى إذ يقول ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(٣)،(٤).

---

(١) فاطر: ٤١.

(٢) سنن الله فى المجتمع من خلال القرآن ط الدار السعودية ط الثالثة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ص١١ للأستاذ المرحوم محمد الصادق عرجون.

(٣) فصلت: ٥٢.

(٤) سنن الله فى المجتمع من خلال القرآن: ص١٥.

وهذا التوازن المجود فى الكون كله بما فيه الإنسان من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة هو قانون يمضى على مفردات الكون بمظاهره وآحاد الإنسان وسلوكه.

ولقد حفل القرآن بالحديث عن هذا التوازن الذى يطرد على الكون والإنسان جميعا ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾[١] ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[٢] ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[٣] وهكذا تمضى آيات القرآن الكريم فى الربط بين الكون ومعطياته والنوع الإنسانى ومفرداته دون فصل فالجميع يصدر عن مشكاة واحدة ويتفرع عن مصدر واحد.

« والقرآن الكريم فى حديثه عن آيات الله الكونية يقرن الأرض بالسماء ثم يتحدث عن شىء من عوالم السماء إبرازا لما فيه من سنن الله وآياته ودلائل قدرته كما رأينا فى حديثه عن الشمس والقمر فى قوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٤] فمستقر الشمس فى جريها هو مدى سيرها الذى تنتهى إليه ولا تتجاوز فى حركتها المقدرة لسبحها فى فلكها الخاص بما يحقق التوازن بينها وبين عالمها وسائر عوالم السماوات والأرض وما بينهما فى تقدير العزيز

---

(١) الحجر: ٨٥. (٢) الروم: ٨.
(٣) الدخان: ٣٨-٣٩. (٤) يس: ٣٨.

العليم وكذلك منازل القمر فى سيره قربا وبعدا وصغراً فى رأى العين وكبرا حتى إذا بلغ آخر منزل منها يرى دقيقا باهتا مقوسا كما هو قضية هذا التشبيه اللطيف الذى جاءت به الآية الكريمة توازن ثابت محكوم بسلطان السن الإلهية فلا تدرك الشمس فى جريها لمستقرها القمر فى سيره إلى منازله لأن كلا منهما محكوم بسلطان وضعه الخاص فى نظام الكون فإذا استوى الدليل بهذا العالم العلوى على باهر قدرة الله تعالى تنتقل إلى الحديث عن الأرض وألوان الحياة بها، وسيد الأرض الذى سخر الله له ما فيها من منافع هو الإنسان لأنه صاحب السلطان على كل ما سخر الله له من شيء ومن هنا كان لابد من اختصاص هذا الإنسان بنوع من السنن الإلهية يقيم عليها بناء حساباته بدءا وانتهاء[1].

وهذا الترابط الواضح لدى الناظر بين قانون الكون وقانون السلوك الإنسانى من الظهور بمكان وعند التطبيق بين صفات وخصائص القانون الكونى أو النظام الإلهى فى الكون والنظام الإلهى فى سلوك البشر سيتضح مدى الانطباق الكامل والتطابق الكلى بين هذا وذاك والفرق بين نتائج القوانين الكونية والقوانين الإلهية فى البشر أن الناظر لأول وهلة فى القوانين الكونية يجد نتائجها واضحة صارمة لا تقبل التغيير ولا التبديل ويظن صاحب النظر المتعجل أن القوانين الإلهية فى البشر ليست كذلك لكن عند التأمل نجد مدى التطابق الكلي بين قوانين الله فى الكون وقوانينه فى بنى الإنسان ولعل هذا ما يلفت النظر إلى الحديث القرآنى عن مظاهر الكون وخلقه وقوانينه فى ثنايا الحديث

---

(١) انظر سنن الله فى المجتمع من خلال القرآن: ص١٩، ٢٠.

عن النظام الإلهى فى البشر وكثر الاستدلال باتقان نظام خلق السماوات والأرض وما بينهما على أن الله حِكمه فى خلق المخلوقات وخلق نظامها وسننها وفطرها بحيث تكون أحوالها وآثارها وعلاقة بعضها ببعض متناسبة مجارية لما تقتضيه الحكمة، ولذلك قال تعالى بعد بيان هلاك الأمم التى كذبت رسلاً ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾(١) ليبين لنا أن ذلك الجزاء الذى حل بها مناسب لتمردها وفسادها وذلك بعد ذكر قصة قوم لوط وأصحاب الأيكة وأصحاب الحِجْر مما يدعو إلى التفكر فى هذا الارتباط المحكم بين النواميس الكونية والنواميس الاجتماعية.

فإذا نظرنا مثلاً فى سورة الأنبياء نجد أنها تعنى بهذا الربط بين مظاهر الكون الواضحة للعيان والتى تجرى بحسبان وبـ (تقدير العزيز العليم) وبين النظام الإلهى فى سلوك البشر وأفعالهم اقرأ إن شئت مثلاً قوله تعالى ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ * وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾(٢).

---

(١) الحجر: ٨٥، ٨٦.

(٢) الأنبياء: ٣٠-٣٥.

فهذه الشريحة الرائعة من آيات القرآن الكريم تجمع بين عدد من مظاهر الكون وقوانينه:

١ـ كون السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقهما الله تعالى.

٢ـ وجود الرواسى التى تمنع الأرض من الميدان بالناس.

٣ـ جعل السماء سقفا محفوظا.

٤ـ خلق الليل والنهار.

٥ـ خلق الشمس والقمر.

٦ـ جعل الكل يسبح فى فلك خاص لا يتعداه ولا يتحداه.

ثم تنتقل الآيات الكريمة دون أدنى مفاجأة إلى رصد جانب من جوانب السنن الإلهية فى البشر وهى:

١ـ سنة عدم التخليد للبشر.

٢ـ سنة التوفى لكل نفس.

٣ـ سنة الابتلاء بالخير والشر فتنة.

فهذا الترابط بين قوانين الكون وقوانين البشر ليست عبثا ولا سدى ولكن (ذلك تقدير العزيز العليم) كما قال الله سبحانه وتعالى.

وإذا انتقلنا إلى سورة الحج بعدها وهى سورة مدنية وجدنا نفس الخيط الدقيق الذى يمضى فى مفاصلها ويسرى بين أعصابها كما يسرى الدم الدفاق فى عروف الإنسان نجد قوله تعالى فى تصوير سنة

النصر والتمكين ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾(١).

وتمضى الآيات الكريمة حتى يقول الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾(٢).

ففى الآيات الأولى من ٣٩ - ٤١ يرصد الله تبارك وتعالى عددا من السنن وهى:

١- سنة النصر لمن ظُلِم.

٢- سنة التدافع.

٣- سنة التمكين.

وفى الآية (٤٦) من السورة الكريمة التى تُعد تعقيبا على هذا الرصد الكريم يلفت الله أنظار الناس إلى السير فى الأرض (الآفاق) والاعتبار بما فيها وما حدث عليها من أحداث للأمم الماضية والتعرف على قوانينها الضابطة ونواميسها الحاكمة.

---

(١) الحج: ٣٩ - ٤١. (٢) الحج: ٤٦.

وفى السورة نفسها رصد آخر وربط ثان بين نصرة المغلوب المظلوم المعتدى عليه وبين إيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل وذلك قوله تعالى ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾(١). والناظر فى هذه الآيات الكريمة يجد هذا التوازى بين قوانين الكون وقوانين البشر فصدر الآيات الكريمة يتحدث عن نصر الله تعالى لمن بغى عليه، وهذه سنة من سنن الله - تعالى - فى خلقه يأتى بعدها عدد من الدعائم لهذا النصر أو إرشادات لطمأنة هذا المغلوب المظلوم وذلك فى الصور الآتية.

١- الأولى: ذكر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل.

٢- الثانية: ذكر أن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل.

٣- ذكر صورة الأرض الجرزاء التى ينزل الله عليها الماء فتصبح مخضرة.

٤- ذكر أن الله له ملك السماوات والأرض.

---

(١) الحج: ٦٠-٦٦.

٥ـ ذكر أن الله سخر للإنسان ما في الأرض والفلك تجرى في البحر بأمره.

٦ـ ذكر إمساك الله السماوات أن تقع على الأرض إلا بإذنه.

فهذه الدلالات الساطعة والإرشادات القاطعة على قدرة الله تعالى على التغيير من حال إلى حال مدخل وبرهان على قدرته تعالى على نصر المغلوب وتمكين المقهور وتغيره من حال إلى حال.

وقد أبدع صاحب التحرير والتنوير بحق عندما ألمح إلى الترابط البديع فقال: «والمناسبة الرابطة بين نصر الله من بغى عليه فصبر وإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل هي الإيماء إلى تقلب أحوال الزمان فقد يصير المغلوب غالبا ويصير ذلك الغالب مغلوبا، فإن النصر يقتضى تغليب أحد الضدين على ضده وإقحام الجيش في الجيش الآخر في الملحمة فضرب له مثلاً بتغليب مدة النهار على مدة الليل، في بعض السنة وتغليب مدة الليل على مدة النهار في بعضها، والحاصل أنه لا عجب في النصر الموعود به المسلمون على الكافرين مع قلة المسلمين فإن القادر على تغليب النهار على الليل حينا بعد أن كان أمرها على العكس حينا آخر قادر على تغليب الضعيف على القوى[1]. وهذا الربط رائع في إيضاح المشابهة بين تغيير حال المغلوب إلى الغلب بحال الليل يولج في النهار والنهار يولج في الليل فيما ذكرته الآيات الكريمة من إيلاج النهار في الليل وإيلاج الليل في النهار سنة كونية ونصر الله للمغلوب أيضاً سنة إلهية فالظاهرة الأولى ظاهرة

---

(١) التحرير والتنوير: ١٧/٣١٥.

طبيعية تمر بالبشر صباحا ومساء وصيفا وشتاء (الليل يدخل فى النهار وهو يطول فى مدخل الشتاء والنهار يدخل فى الليل وهو عند مطالع الصيف ويرى البشر هذه الظاهرة وتلك، من إيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل فينسيهم طول رؤيتها وطول إلفها ما وراءها من دقة النوميس واطرادها فلا تختل مرة ولا تتوقف مرة وهى تشهد بالقدرة الحكيمة التى تُصَرِّفُ هذا الكون وفق تلك النواميس والسياق يوجه النظر إلى تلك الظاهرة الكونية المكررة التى يمر الناس عليها غافلين ليفتح بصائرهم ومشاعرهم على يد القدرة وهى تطوى النهار من جانب وتسدل الليل من جانب وهى تطوى الليل من جانب وتنشر النهار من جانب فى دقة عجيبة لا تختل فى اطراد عجيب لا يتخلف وكذلك نصر الله لمن يقع عليه البغى وهو يدفع عن نفسه العدوان إنه سنة مطردة كسنة إيلاج الليل فى النها إيلاج النهار فى الليل فكذلك يزوى الله سلطان المتجبرين وينشر سلطان العادلين فهى سنة كونية تلك السنة يمر عليها الناس غافلين كما يمرون على دلائل القدرة فى صفحة الكون وهم لا يشعرون[١].

وهكذا تمضى الآيات الكريمة فى رصد دلائل قدرة الله تعالى ومن خلالها يتم التطابق بين السنن الكونية الثابتة التى لا تتخلف والسنة الإلهية فى الأمم التى لا تتخلف أيضًا وهذا وذاك مطروح أمام الناظرين ولكن اعتياد الناس أمرًا معينا ولو كان ملموسا محسوسا قد يذهلون عنه رغم اطراده وعدم تخلفه ومن شدة الظهور والخفاء.

---

(١) الظلال جـ٤، ص٢٤٤١، ط الشروق ط الرابعة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

وإذا انتقلنا إلى سورة المؤمنون وهى سورة مكية وجدنا نفس التزواج الرائع والمزيج الباهر بين دلائل القدرة الرائعة فى الأنفس والآفاق واطرادها فى قوانين الله تعالى فى سلوك البشر فقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾[1] فصدر الآيات الكريمة يتناول سننا ثابتة فى الكون والإنسان مفردة من مفرداته:

١ـ خلق الإنسان من سلالة من طين.

٢ـ جعله نطفة من قرار مكين.

٣ـ جعل النطفة علقة.

٤ـ خلق العلقة مضغة.

٥ـ كساء العظام لحما.

٦ـ إنشاؤه خلقا آخر.

وتنتقل الآيات الكريمة بعد رصدها السنن الثابتة إلى الحديث عن:

١ـ سنة الله فى الإماتة.

٢ـ سنة الله فى البعث.

---

(١) المؤمنون الآيات: ١٢ ـ ١٦.

وهذه الآيات وسابقتها تمهيد بديع للحديث عن سنة الصراع بين الحق والباطل الممثلة فى قصة نوح عليه السلام وموقف قومه ويختم الأسلوب القرآنى هذا كله بقوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾[1] بما يؤكد للناظر والدارس أن كل ما سبق هو آيات بينات ودلالات ظاهرات تمضى فى الجانب الكونى كما تمضى فى الجانب البشرى فى تناغم واتساق.

وفى سورة النور السورة المدنية يمضى نفس النهج القرآنى فى المزاوجه بين دلائل الله تعالى فى الآفاق ودلائله فى الأنفس ويجمع هذا كله الآيات من ٣٨ ـ ٤٦ حيث تتحدث الآيات الكريمة عن جزاء الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وجزاء الذين كفروا ووصف أعمالهم بالسراب الكائن بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده فوفاه حسابه وتمتد لتتناول الحديث عمن يسبح الله فى السماوات والأرض وإزجاء الله السحاب الذى يؤلف بينه ثم يجعله ركاما وإنزال جبال البرد من السماء وتقليبه تعالى الليل والنهار.

وإذا انتقلنا إلى سورة النمل وجدنا تلك الآيات التى تتحدث عن قانون الله تعالى فى المكر والماكرين فى رصدها لقصة نبى الله صالح مع قومه ثمود ويعقب القرآن الكريم بقوله ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ

---

(١) المؤمنون: ٣٠.

أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾(١) وبعد هذا وبعد الحديث عن قصة لوط ـ عليه السلام ـ وقومه تأتى مجموعة من الآيات الكونية التى هى من الظهور والبيان بدرجة لا يستطيع أن يتناساها ناظر وهى فى الآيات من ٥٩ إلى ٦٤ وقد شملت الآيات الكريمة:

١ـ خلق الله للسماوات والأرض.

٢ـ إنزاله من السماء ماء فأنبت به حدائق ذات بهجة.

٣ـ جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا.

٤ـ إجابته المضطر إذا دعاه وكشفه السوء وجعل الناس خلفاء الأرض.

٥ـ هدايته للناس فى ظلمات البر والبحر.

٦ـ إرساله الرياح بشرا بين يدى رحمته.

٧ـ رزقه الناس من السماء والأرض.

وفى حديث السورة نفسها عن قانون الهداية والضلالة ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾(٢) بعدها بآيات يسيرة حديث عن سنة كونية فى قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا

---

(١) النمل: ٥٠ ـ ٥٣.

(٢) النمل: ٧٩ ـ ٨٠.

اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1].
وقوله ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾[2].

وفى سورة القصص حديث للقرآن الكريم عن سنة الله تعالى فى الإهلاك فى قوله تعالى ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾[3].

ثم تمضي الآيات الكريمة ترصد شبهات هؤلاء الغاوين وتصف حالهم فى الآخرة وعمى الأنباء عليهم فهم لا يتساءلون حتى تأتى الآيات التى تكمل هذا الجانب في ناحية الكون وطلاقة قدرته تعالى فيه بقوله ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ * وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[4].

ومن هنا كثر تنبيه القرآن الكريم إلى النظر فى الأرض والسماء والامتزاج بين النظام الكونى فى الخلق والإبداع والنظام البشرى فى

---

(١) النمل: ٨٦.
(٢) النمل: ٨٨.
(٣) القصص: ٥٨ـ٥٩.
(٤) القصص: ٧٠ـ٧٣.

السلوك والأفعال حتى لا تكاد تجد آية تتحدث عن نظام خلق السماوات والأرض وإبداعها إلا ومعها حديث عما يخص النظام البشرى كهذه النماذج السريعة:

١- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[1].

٢- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾[2].

٣- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾[3].

٤- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾[4].

٥- ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[5].

٦- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[6].

وكذلك آخر سورة العنكبوت وصدر سورة الروم، وصدر سورة سبأ وصدر سورة فاطر وغير ذلك من الأمثلة التى يعى حصرها من أراد حصرها لغناها وكثرتها.

● ● ●

(١) الحجر: ٨٥.
(٢) الأنبياء: ١٦.
(٣) ص: ٣٧.
(٤) الدخان: ٣٨.
(٥) الأحقاف: ٣.
(٦) الأنبياء: ١٦، ١٧، ١٨.

الفصل الرابع

منهجية التعامل مع السنن الربانية

المبحث الأول

الإنسان مهيأ لإدراك السنن الربانية

الإنسان خليفة الله فى أرضه استعمره فيها واستخلفه من قبله عليها ومهد له سبل الانتفاع بها، ووسائل التعايش معها وجعل كل ما حوله يخدمه ويؤازره وزوده بملكات يدرك من خلالها ما حوله وهداه إلى سبل الانتفاع به وجعل ذلك نعمة من نعمة تعالى عليه ومنة من مننه لديه بل علة لتسبيحه تعالى فقال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾[١].

وهيأ له من سوائل العلم والمعرفة ما يجعله أهلاً لتلقى أوامر الله تعالى وتنفيذ وصاياه، لذلك كثر فى القرآن الكريم الأمر بالسير فى الأرض والتفكر فيها والنظر فى حنباتها والاتعاظ بأحوال أهلها، وتعدد فى القرآن الكريم ألفاظ الذكر والفكر والنهى.

وهيأ الله ـ تعالى ـ الإنسان لإدراك مواطن صلاحه بل عد ذلك نعمة من نعمه ودليلاً من الأدلة على الوصول إليه عز وجل: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٢].

---

(١) الأعلى: ١ ـ ٥.   (٢) فصلت: ٥٣.

إن الإنسان خليفة الله فى الأرض ومظهر لصفاته قال تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1] ثم جعله أفضل من جميع مظاهر القدرة ﴿ولقد كرمنا بنى آدم﴾[2] وحتى يتمكن الإنسان من حمل هذه المسئولية منحه الله تعالى استعداداً مادياً وروحياً وتنظيمياً وخلقياً ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[3].

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[4].

وقد ذكر المفسرون معانى عديدة للأسماء أنسبها قولهم إنها علم حقائق الأشياء والمراد بالعلم هنا العلم الإجمالى وهو يشير إلى الصلاحية[5].

وهذه الآية الكريمة ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ تجعل المسلم يشهد طرفاً من هذا السر الإلهى العظيم الذى أودعه الله هذا الكائن البشرى وهو يسلمه مقاليد الخلافة سر القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات سر القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها وهى ألفاظ منطوقة رموزاً لتلك الأشخاص والأشياء المحسوسة وهى قدرات ذات قيمة كبرى فى حياة الإنسان على الأرض تدرك قيمتها حين تتصور الصعوبة الكبرى لو لم يوهب الإنسان القدرة على الرمز بالأسماء

---

(١) البقرة: ٣٠.　　(٢) ؟؟؟؟.

(٢) التين: ٤ - ٧.　　(٣) البقرة: ٣١.

(٥) انظر النظام الإلهى للرقى والإنحطاط ص١٢ - ١٣ ط دار الصحوة ط أولى لمحمد تقى الأمين، ترجمة د. مقتدى حسن الأزهرى بتصرف وترتيب.

للمسميات والمشقة في التفاهم والتعامل حين يحتاج كل فرد لكي يتفاهم مع الآخرين على شيء أن يستحضر هذا الشيء بذاته أمامهم ليتفاهموا بشأنه... إنها مشقة هائلة لا تتصور معها الحياة وإن الحياة ما كانت لتمضي في طريقها لو لم يودع الله هذا الكائن القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات)[1].

فلا شك أن تعلم آدم للأسماء نوع من إعداده وتهيئته للقيام بمهمته في الأرض ولو لا هذا التعليم لأنواع الأشياء وأسماءها وخصائصها لما تيسر له العيش في هذه الأرض ولا الانتفاع بخيرتها والناظر في القرآن الكريم وآياته يرى أنها تأمر المسلم بل الإنسان بصفة عامة بالسير في الأرض والتفكر فيها وفي دلائل قدرة الله تعالى من خلالها والنظر إلى السماء والوصول من خلال ذلك إلى مكونها وباني سمكها ورافعها بلا عمد نراها. لولا صلاحية الإنسان لهذا الإدراك لما أمره الله تعالى بالسير والتفكير والذي كثرت الدعوة إليه في القرآن الكريم (لقد بين القرآن أن ا لكون وما به من الشمس والقمر وغير ذلك مسخر لخدمة الإنسان وأن الإنسان منح الصلاحية لتسخير هذه الأشياء بالعقل والتجريد، حدث ذلك في الوقت الذي كانت الأديان الأخرى ترى الكون وظواهره أمرًا فوق القوة وشيئًا مقدسًا وكانت تعبده على هذا التصور وكانوا يرون أن دراسة الكون أمر مذموم بناء على تصور أن الله ـ تعالى ـ خلق الكون ثم منحه الشيطان للتصرف فيه وكانوا ينسبون كل من يشتغل بهذه الأمور إلى الجن)[2].

---

(١) في ظلال القرآن، ج١ /٥٧ بتصرف يسير، ط دار الشروق، الطبعة الحادية عشر، أ. سيد قطب.

(٢) النظام الإلهي في الرقي والانحطاط ص١٤٩ ؛

والذى ينظر إلى العالم الغربى وموقفه من العلم والعلماء فى العصور السابقة يدرك تمام الإدراك هذا المعنى فالمحاكم التي نصبت لرواد العلماء فى أوربا تظهر مدى كرههم للعلم والمعرفة أما الإسلام وكتاب الإسلام فإن أول كلمة نزلت فيه كانت (اقرأ) وحث على النظر والانتفاع من الكون بصورة لم يسبق لها مثيل.

والسير فى الأرض والتفكر فى جنباتها يصل بالإنسان إلى فهم السنن وإدراكها والانتفاع بها فالسير فى الأرض يتبعه الاتعاظ بمصارع الغابرين ووقائع الماضين وعادته المتبعة فى كل أولئك السابقين.

وهذا هو المراد من أن يكون الإنسان أهلاً لإدراك السنن الربانية حتى يكون ذلك طريقًا لانتفاعه بها واتعاظه من خلالها.

● ● ●

المبحث الثانى

العلم بالسنن الكونية طريق إلى معرفة السنن الربانية

إن الناظر فى الكون وما فيه وأطرافه وحَوا فيه يدرك أنه آية تدل على الخالق وعلامة ترشد إلى الملك الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى وقد ورد فى القرآن الكريم آيات وعبارات تغرى بالتفكر فى الكون والانتقال من خلاله إلى المكون.

والكون أحد الجناحين اللذين تسير فيهما مظاهر قدرة الله ـ عز وجل ـ أما الجناح الثاني فهو القرآن الكريم والقرآن والكون يتلاقيان تلاقى أثرين لمؤثر واحد وعنصرين يخرجان من مشكاة واحدة فإن خالق الأول وصاحب الثانى واحد وهو الله سبحانه وتعالى.

(والعلم بسنن الله ـ تعالى ـ الكونية العامة طريق إلى العلم بسنن الله الخاصة فى المجتمع البشرى ومعرفة تقلبات الحياة به ومعرفة تطوره ومعرفة عوامل هذا التطور ومعرفة مدى سلطان هذه السنن الإلهية على المجتمع لأن العلم بهذه السنن عامة وخاصة هو القيم على توجيه الحياة وتعرفها بما وضع الله فى خصائصه من طاقات لتصوير الظواهر الكونية ودواقعها القريبة أو البيعدة وهذا العلم بالسنن الإلهية هو الذى وضع المجتمع الإسلامى فى مكان الصدارة من الحياة يوم أن كان العلم بأوسع معانيه هو القائد لهذا المجتمع فطاف آفاق السماوات والأرض نظاراً باحثًا ليستشف الحقائق الكونية من وراء السجف يكشفها له القرآن ويهديه إلى أصولها.

والقرآن العظيم إذا تحدث عن سنن الله فى المجتمع الإنسانى فإنه يتحدث عنها كحلقة فى سلسلة النظام الكونى القائم على التناسق بين عناصر الكائنات الوجودية تناسقًا تؤدى به عملها الذى تقتضيه طبيعة وجودها فى مكانها من الحياة فهو يتحدث عن نشأة هذا المجتمع نشأة استقلالية النوع ولكنه مرتبط أشد الارتباط بهذا الأرض يعيش عليها لأنه بمادته خلق وإليها بهذه المادة يعود ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾[1] وبهذا الارتباط يحقق التوازن بين عناصر ابنائه بناء اجتماعيًا ينبع منه تفكيره وأخلاقه وطرائق عيشة ومراحل أطواره الاجتماعية صعودًا وإعزازًا فى منازل الوجود المقدر له)[2] والذى يتابع رصد الآيات القرآنية يرى لأول وهلة هذا الترابط بين سنن الله فى الكون وسنته فى النظام البشرى وهذا التمهيد من الأول للثانى حتى لا يكاد يوجد حديث عن السنن الربانية أو نظام الله ـ تعالى ـ الذى يحكم سلوك البشر إلا ويسبقه أو يعقبه حديث عن نظام الله فى الكون.

ومن هنا كان الأمر بعد الأمر فى القرآن الكريم للإنسان مطلق الإنسان بأن يسير ويتفكر وينظر ويعتبر ويتأمل الأحداث الماضية والوقائع الجارية حتى يأخذ من أمسه ليومه ومن يومه لغده وينتفع بتجارب السابقين.

وطريقة عرض القرآن الكريم لهذا الفكرة تلونت وتنوعت بأكثر من نوع وظهرت فى أكثر من صورة فمرة يتحدث القرآن الكريم عن حلقة

---

(١) طه: ٥٥.

(٢) انظر سنن الله فى المجتمع: ص٢٦، ٢٠.

من حلقات الصراع بين الحق والباطل وبأمر رسوله ﷺ والأمة فى شخصه الكريم - باستخلاص العظة واستلهام العبرة كقوله تعالى بعد أن قص طبيعة الصراع فى قصة نوح عليه السلام ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1] ومرة يضرب للناس مثلاً لعلهم يتكفرون وثالثة يغرى الناس بالتأمل فى القوانين الماضية والسنن الصارمة.

من هنا يمكننا أن نقول إن هذا الترابط بين سنن الله فى الكون وسننه فى المجتمع الأولى تمهيد للثانية والثانية تصديق للأولى فهما يخرجان جميعًا من مشكاة واحدة، والذى يعلم سنة الله فى الكون بقوانينه الصارمة ينبغى أن يدله ذلك إلى سنن الله فى المجتمع فإذا كانت بذرة لا تخرج بغير مقومات الحياة ولا تثمر من فراغ - فإن نصرًا لا يتحقق بدون أسبابه وصاحب الأمر والنهى فى كل ذلك الله رب العالمين فالعلم بالسنن الكونية طريق إلى العلم بالسنن الربانية.

●●●

---

(٣) هود: ٤٩.

المبحث الثالث

السنن الربانية من الفهم إلى التسخير ومن الإدراك إلى التوظيف

فهم السنن الربانية خطوة من خطوات الانتفاع بها الاستفادة منها، وإذا كنا نقول فى مجال الحكم على الأشياء إن الحكم على الشىء فرع عن تصوره فيمكننا أن نقول كذلك فى ميدان السنن إن فهمها طريقٌ إلى تسخيرها وإدراكها سبب إلى توظيفها وإلا فأنى لإنسان كائنًا من كان أن ينتفع بشىء لا يدرك كنهه ولا يسبر غوره ولا يعرفه على حقيقته من هنا فإن أوجب ما يجب على المسلمين أن يفهموا أولاً سنن الله فى الحياة والأحياء وأن يتعاملوا معها بعد ذلك على هذا الأساس فإن أكثر المسلمين اليوم لا ينقصهم إخلاص ولا ينقصهم إيمان بقدر ما ينقصهم فهم واعب واعى لقضايا الدين وتصور معطياته جتى فى المفاهيم العامة للكلمات الدين ـ العبادة ـ الحرية ـ التجديد ـ الإصلاح ـ ... إلخ. هذه المصطلحات ينقص المسلمين فيها الضوابط التى تتيح لهم فرصة الانتفاع بحقيقة هذه المفاهيم وتعود فنقول إن العلم بالسنن والتعرف عليها أول درجة من درجات حسن التعامل معها، وهذا ما يسميه فقهاء الدعوة وروادها (فقه السنن الإلهية) فأول شرط من شروط التعامل المنهجى السليم مع السنن الإلهية والقوانين الكونية فى الأفراد والمجتمعات والأمم هو أن نفهم أو نفقه فقهًا شاملاً رشيداً هذه السنن وكيف تعمل ضمن الناموس الإلهى أو ما نعبر عنه بـ (فقه

السنن) ونستنبط منها على ضوء فقهنا لهذه القوانين الاجتماعية والمعادلات الحضارية)[١].

ومن هنا يقول الإمام البنا ـ رحمه الله ـ (فيما يشبه الاختزالات العميقة ـ للتجارب البشرية (لا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها واستعينوا ببعضها على بعض وترقبوا ساعة النصر وما هى منكم ببعيد)[٢].

ولقد رصد الأستاذ الشيخ البنا ـ رحمه الله ـ فى هذه السطور القليلة حشداً هائلاً من القيم العالية والتوجيهات الرائعة التى هى بحق معالم وملامح لفقه السنن الربانية ويمكن أن نستخرج من كلامه فى فقه التعامل مع السنن الربانية هذه الخطوات.

أولاً: عدم المصادمة.

ثانيًا: المغالبة.

ثالثًا: الاستخدام.

رابعًا: التحويل.

خامسًا: الاستعانة ببعض السنن على بعض.

سادسًا: ترقب ساعة النصر. وهذه الخلاصات وغيرها عقبها الشيخ ـ رحمه الله ـ بقوله:

---

(١) انظر حول أساسيات المشروع الإسلامى لنهضة الأمة قراءة فى فكر الإمام الشهيد حسن البنا، ط دار التوزيع والنشر الإسلامية، بدون. د. عبد الحميد الغزالى.

(٢) انظر مجموعة الرسائل رسالة المؤتمر الخامس.

(فعلى هذه الدعائم القوية أسسوا نهضتكم وأصلحوا نفوسكم وركزوا دعوتكم وقودوا الأمة إلى الخير والله معكم ولن يتركم أعمالكم)[1].

وإذا أردنا أن نفصل هذه الخطوات وجدناها على النحو التالى:

١ـ **عدم المصادمة**: ذلك أن الإدراك الحقيقى للسنن الربانية يجعل الإنسان بعيداً عن مصادمتها وكيف يصادقها وهو يدرك طبيعتها ويعلم سيرها وعدم تخلفها أو تبدلها وتحولها من هنا فهو يتعامل معها على هذا الأساس تعامل الكيميائى مع المواد التى يعرف خصائصها ويدرك كنهها والطبيب الذى يعرف خصائص المرض وأنواعه فيشخص الداء ويصف الدواء بكل تجرد وحيادية.

٢ـ **المغالبة**: والمغالبة تعنى المفاعلة ويراد بها هنا أن المسلم إذا كان لا ينبغى له أن يصادم السنن والنواميس ولا يقف أمامها فإنه مأمور بأن يغالبها ويوظفها لصالحه ويجعل تيارها معه لا عليه.

٣ـ **الاستخدام**: وهو المقصود بالتوظيف بعد الإدراك والتسخير بعد الفهم وهذا هو بيت القصيد من فهم السنن الربانية أن يصل بها فى النهاية إلى درجة وتوظيفه لها وانتفاعه بها بل حسن التوظيف وحسن الانتفاع.

٤ـ **تحويل تيارها**: والمقصود من تحويل تيار السنن والنواميس الربانية أن يجعلها الإنسان تخدمه لا تستخدمه وأن يغتنم قوتها وشدتها

---

(١) انظر مجموعة الرسائل.

وأن يجعل تيارها يجرى فى المسار الذى يخدمه ويعود عليه بالنفع والغنم.

٥ـ **واستعينوا ببعضها على بعض:** وهذا دور الإنسان المدرك لطبيعة السنن والمدرك لأنه أهل لاستخلاف الله تعالى له وجعله سيداً فى هذا الكون فهو بهذا الاستخلاف وتلك السيادة يملك بعقله الذى ـ وهبه الله تعالى له، يملك توظيف بعض السنن ببعض والاستعانة بها عليها حتى يكون مسخراً لها ولاتكون هى مسخرة له وساعتها يكون من أهل النصر القريب والفتح المبين.

والأمة اليوم فى أمس الحاجة إلى هذا الفكر الواعي الذى يقوم على التدبر فى سنن الله تعالى وفقه التعامل معها فإن كثيراً من أمراض أمتنا نشأت وترعرعت فى ظل غياب الفهم الكامل لمضامين القرآن الكريم الغيبوية التى طالت عن مراد الله ـ تعالى ـ ونحن بتقصيرنا فى هذا الجانب خانب السنن الربانية وفقهها نشارك فى رسم صورة سيئة عن الإسلام عند أعدائنا فإنهم يربطون بين تخلفنا العلمى والحضارى والثقافى والمعيشى وبين ديننا فيظلم هذا الدين الجريح بهذه النظرة إليه ولنا فى صنع هذا الظلم له نصيب أى نصيب.

إن من فهموا قوانين الله ـ تعالى ـ وسننه فى خلقه استطاعوا أن يحققوا سبقًا ويحرزوا نصراً ويصلوا إلى أهدافهم فمؤمن آل فرعون استطاع أن يصل إلى ما يريد من خلال إرشاد قومه إلى سنن الله ـ تعالى ـ فى الأنفس والآفاق وأتت عبارته بهذه الدقة البالغة والبيان المعجز ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾[1].

(١) غافر: ٣٤.

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(١).

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾(٢)، وجنود طالوت فهموا أيضًا سنن الله ـ تعالى ـ فقالوا ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾(٣).

وإذا كان هؤلاء الفاهمون لسنن الله فى الكون والنفس صدعوا برأيهم وأظهروا فهمهم فإن أمة تريد النصر وتسعى إليه لابد وأن تفهم هذه السنن وتنادى بفهمها حتى يعم النصر المؤمنين ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

●●●

(١) غافر: ٤٠.   (٢) غافر: ٤٤.

(٣) البقرة: ٢١٤٩ ـ ٢٥١.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة مع السنن الربانية فى مضامين القرآن الكريم ولسان العرب وأحاديث الرسول ﷺ نريد أن يختم هذه الدراسة نقاط نوجزها فى الآتى:

أولاً: اهتمام القرآن الكريم بالحديث عن السنن والقوانين التى تحكم سلوك البشر وتنظم حياتهم حيث وردت لفظة السنن مفردة ومجموعة ثمانى عشرة مرة، عدا ذكر السنن الفعلية كسنة النصر والإهلاك والتسخير والأجل، والتداول الحضارى والإنذار والترف والمترفين والظلم والظالمين والمكر والماكرين، وقيام الحضارات واندثارها، والبقاء والفناء. وشكر النعم وكفرها، وسنة التغيير والصراع بين الحق والباطل والتمكين، والابتلاء والاستخلاف والتدرج والهداية والإضلال، والأسباب والمسببات والتزاوج والرزق.

ثانيًا: مدى تقصير المسلمين فى الدراسات التى تعنى بهذا الجانب من جوانب الفهم القرآنى وتوظيف هذه السنن والانتفاع بها وقل من المسلمين من أفرد لهذه الجوانب حديثا يتناسب مع قيمتها وأهميتها، رغم أنها جانب من جوانب بناء الشخصية المسلمة بل الشخصية الإنسانية يفوتها خير كثير بفقدان فهم هذه السنن والتعامل معها، وإذا كانت دراسة هذه السنن فريضة لأن القرآن دعا إلى فهمها وحسن التعامل معها فإنها ضرورة حياتية تحتمها وضعية البلاد المسلمة التى ارتبط فيها الفقر والمرض والجهل، تالوث الدمار كما يسمى، ارتبط بهم

على أنهم مسلمون والحق أن الإسلام بريء من هذا التردى الذى يعيشه المسلمون.

ثالثًا: بأن من خلال هذه الدراسة كذلك أن هناك آثاراً مدمرة تترتب على إهمال التعامل مع سنن الله تعالى فى الكون وهذا الإهمال الذى قد يصل إلى التأثير على جوانب الفكر فتظهر مقولات ظالمة وأفكار غير متزنة والسبب وراء ذلك عدم فهم السنن الربانية فهما قرآنيا.

رابعًا: بأن كذلك أن للسنن الربانية خصائص وصفات فهى مطردة شاملة عامة، لا تتبدل ولا تتغير ولا تتحول وهى لا تحابى ولا تجامل كما أنها لا تخالف المعجزة والخوارق. فهناك قوانين تحكم المعجزات وقوانين تحكم السنن الجارية فلا تعارض ولا تنافره بل كل فى فلك يسبحون.

خامسًا: كما أن هذه السنن مربوبة لله ـ تعالى ـ وخاضعة لأمره ونهيه فهى غير مستقلة ولا ثابتة الفعل فالكون كله بقوانينه الكونية والربانية يخضع لمشيئة واحدة وإرادة قاهرة وهى إرادة الله عز وجل.

سادسًا: اتضح كذلك من خلال هذه الدراسة أن حجية السنن الربانية قاطعة ودلالتها ثابتة نظراً لكثرة الأمر بالانتفاع بها والاستفادة منها.

سابعًا: هناك علاقة وطيدة وعروة وثقى بين السنن الكونية أو نظام الله فى الكون والسنن الربانية أى نظام الله فى سلوك الإنسان.

ثامنًا: هناك صيغ وردت عليها لفظة السنن فى القرآن الكريم مجموعة ومفردة ومضافة ومقطوعة عن الإضافة بصور متعددة.

تاسعًا: وردت السنن فى مواطن وموارد بعينها مثل القصص القرآنى، والمثل القرآنى، والآيات الآمرة بالسير فى الأرض والنظر فى الكون والتدبر فى

مصارع الغابرين ووقائع الماضين كما كثر ورودها فى الآيات التى يرتبط آخرها بأولها ارتباط الشرط بالمشروط والعلة بالمعلول والسبب بالمسبب.

عاشراً: اتضح كذلك من هذه الدراسة ان الإنسان مهيأ لإدراك السنن الربانية ومن ذلك ان الله - تعالى - علمه الأسماء والمسميات وحقائقها ووظائفها والانتفاع بها وأن إدراك السنن الكونية طريق من طرق إدراك السنن الربانية والتعرف عليها.

حادى عشر: ان الإنسان لابد وأن يوظف هذه السنن ويستفيد منها ويحسن التعامل معها وإلا كان آثما شرعًا.

ثانى عشر: دعوة ملحة فى ان يكون هذا الباب الخصب من أبواب الدراسات القرآنية محطا لأنظار العلماء وأقلام الباحثين حتى تستطيع ان تنهض أمتنا على ضوء دستورنا وفى ظلال فهمنا لكتاب ربنا.

والله المستعان

قائمة المراجع

(أ) القرآن الكريم.

(ب)

١ـ إحياء علوم الدين: ط عيسى البابى الحلبى ـ بدون تاريخ.

٢ـ أساس البلاغة: ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط الثالثة ١٩٨٥م، للإمام الزمخشرى.

٣ـ أسرار البلاغة: ط محمد على صبيح ـ ط السادسة ١٣٧٩هـ، ١٩٥٩م ـ للإمام عبد القاهر الجرجانى، بتعليق السيد رشيد رضا.

٤ـ أعلام الموقعين عن رب العالمين: لابن القيم.

٥ـ الإمام محمد الغزالى وجهوده فى التفسير وعلوم القرآن: ط دار الحرم للتراث، ط أولى، ٢٠٠٣م، د. رمضان خميس الغريب.

٦ـ الأمثال من الكتاب والسنة: ط دار التراث بدون، للحكم الترمذى تحقيق على محمد البجاوى.

٧ـ بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز: ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ ط الثالثة، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، للفيروز آبادى.

٨ـ التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور.

٩ـ تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار: ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١٩٧٣م، السيد رشيد رضا.

١٠ـ تفسير القرآن العظيم: ط عيسى البابى الحلبى، للإمام عماد الدين أبى الفداء ابن كثير.

١١ـ توحيد الخالق: ط دار المجتمع، ط الثانية ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م للأستاذ الشيخ عبد المجيد الزندانى.

١٢ـ جامع البيان عن تأويل آى القرآن: ط دار الريان للتراث ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧م، للإمام ابن جرير الطبرى.

١٣ـ حتى يغيروا ما بأنفسهم: ط مطبعة الحسين الجديدة، ط الثالثة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م للأستاذ جودت سعيد.

١٤ـ خلق الإنسان بين العلم والقرآن: ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م، د. عبد الفتاح طيرة.

١٥ـ روح المعانى: ط دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٤م للإمام الألوسى.

١٦ـ السنن الإلهية فى الأمم والأفراد والمجتمعات والشعوب: ط الرسالة د. عبد الكريم زيدان

١٧ـ سنن الله فى المجتمع من خلال القرآن: ط الدار السعودية، ط الثالثة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، للمرحوم الشيخ محمد الصادق عرجون.

١٨ـ شرح المقاصد: ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط١٤٢٢١، ٢٠٠١، للعلامة سعد الدين التفتازانى.

١٩ـ شرح المقاصد: ط دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط أولى ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١م للعلامة سعد الدين التفتازانى.

٢٠ـ الفلسفة القرآنية: ط دار الهلال بدون تاريخ، للأستاذ العقاد.

٢١ـ فى ظلال القرآن: ط دار الشروق، ط الرابعة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م للشيخ سيد قطب ـ رحمه الله.

٢٢ـ قدر الدعوة: ط مكتبة الحرمين للعلوم النافعة ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م للأستاذ رفاعى سرور.

٢٣ـ القرآن والعلم الحديث: ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١م.

٢٤ـ القرآن والعلم الحديث: ط دار الشعب، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م للأستاذ عبد الرزاق نوفل.

٢٥ـ القصص القرآنى إيحاؤه ونفحاته: ط دار القرآن، ط الثانية ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، دفضل حسن عباس.

٢٦ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل: ط مكتبة مصر للإمام جار الله الزمخشرى.

٢٧ـ كيف تتعامل مع القرآن: ط دار الوفاء، ط الثانية ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، للمرحوم الشيخ محمد الغزالى.

٢٨ ـ اللآلىء الحسان فى علوم القرآن: بدون، للدكتور موسى شاهين لاشين.

٢٩ـ لسان العرب: لابن منظور.

٣٠ـ الله يتجلى فى عصر العلم: ط الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، ط الرابعة ١٩٨٦م.

٣١ـ مباحث في علوم القرآن: ط مكتبة وهبة للشيخ مناع القطان.

٣٢ـ مجموع فتاوى: شيخ الإسلام ابن تيمية.

٣٣ـ مجموعة الرسائل: للإمام الشهيد حسن البنا، ط دار الشهاب.

٣٤ـ محاسن التأويل: ط دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، لجمال الدين القاسمى.

٣٥- **مدخل إلى دراسة السنن الإلهية فى القرآن الكريم:** سلسلة دراسات إسلامية العدد ١١١، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤، د. مجدى عاشور.

٣٦- **مراجعات فى الفكر والدعوة والحركة،** للأستاذ محمد عبيد حسنة.

٣٧- **المشروع الإسلامى لنهضة الأمة قراءة فى فكر الإمام الشهيد:** حسن البنا، ط دار التوزيع والنشر الإسلامية، إعداد أ.د عبد الحميد الغزالى.

٣٨- **مفاتيح الغيب للإمام الرازى.**

٣٩- **المفردات فى غريب القرآن:** ط الأنجلو بدون تاريخ، للراغب الأصفهانى.

٤٠- **مفهوم سنن الله الاجتماعية فى القرآن الكريم:** بحث للدكتور صديق عبد العظيم أبى الحسن، ضمن مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية السنة الثانية عشر العدد الحادى والثلاثون ذى القعدة ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

٤١- **مناهل العرفان فى علوم القرآن:** ط دار إحياء الكتب العربية - للمرحوم الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى.

٤٢- **الموسوعة القرآنية المتخصصة:** ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م.

٤٣- **النظام الإلهى للرقى والانحطاط:** ط دار الصحوة ط أولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م لمحمد تقى الأمينى.

٤٤- **نظم اللآلى من حكم الغزالى:** ط دار الحرم للتراث جمع وإعداد د. رمضان خميس الغريب.

فهرس الموضــوعات